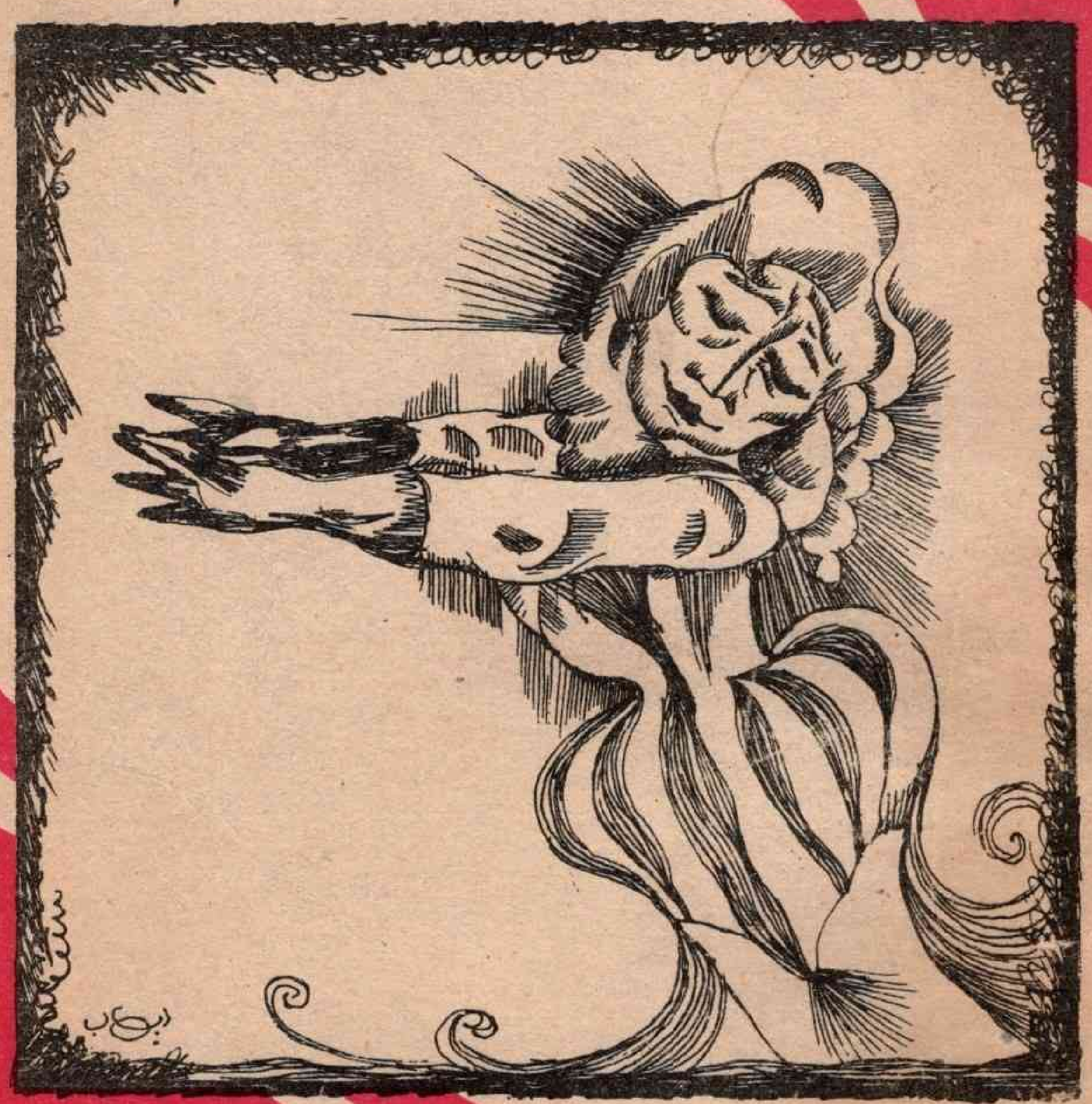
اقرأ

البارونة أمّ أحمد



محمود تيمور

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز ٧٥



البارونة أمّ أحمد

محمود تيمور

البارونة أمّ أحمد

وقصص أخرى

اقرأ ٢٨٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٩ – يناير سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

فهرس

البارونة « أم أحمد »

هى لا تدرى على وجه التحديد : متى بدأ الناس يدعونها « أم أحمد » ؟

لقد وجدت نفسها — وما برحت صبية — تحمل هذا اللقب الذى لا يطلق إلا على من كان لها ولد .

أما تلقيبها بـ « البارونة » فذلك هو الحادث البطل فى تاريخ حياتها المديد .

نشأت يتيمة ، لا أب ولا أم ، فكفلها خال علت به السن ، يعمل ملقناً فى « المسرح الكبير » الذى عاصر التمثيل العربى فى بواكيره .

ولم يكن للخال مأوى غير هذا المسرح ، ينتبذ منه حجرة خشبية صغيرة ، أو بالأحرى حطام حجرة . وكانت الصبية مقيمة معه ، يتعاونان على النهوض بأعباء العيش .

ونظرة إلى هذه الحجرة التى يتخذها الرجل مبيتاً له ، تريك أنها ليست إلا خنا آخر شبيهاً بذلك الخن البارز على منصة المسرح ، حيث يقضى الرجل الساعات الطوال لأداء مهمة التلقين .

وقضت الصبية « أم أحمد » مرحلة الحداثة فى جو المسرح ، جو العجائب والخوارق والتهاويل ، تشهد التمثيليات ، من فرجة هنا وفرجة هناك ، وراء المناظر والأستار ، فكأنما يتجلى لها عالم سحرى من عوالم

الرؤى والأساطير .

ولطالما ملكها النوم ، وهى قابعة فى إحدى الزوايا والأركان ، لا توقظها إلا أقدام الرائحين والغادين من زملة التمثيل ، ترتطم بها على على غير عمد .

وتعاقبت شهور وأعوام .

ويوماً ألفت الصبية نفسها وحيدة ، لا « خال » لها على مسرح حياتها . لقد اختفى عنها كما تختفى الشخوص فى تمثيلية تم عرضها ، ولا أمل فى أن تعود .

وفوجئت « أم أحمد » بأن خن الملقن فى صدر المسرح يستقبل رجلا غير خالها المفقود ، فجعلت ترنو إليه ملياً فى صمت حزين .

أما الخن الآخر ، حطام الحجرة ، فلم يأبه له أحد ، فعاشت فيه الصبية على هامش الضجة التى تحيط بها ، لا ناصر لها ولا كفيل .

وكانت تتصيد رزقها من خدمات تؤديها لزمرة المسرح ، فإذا بدأ التمثيل استكنت فى الدخائل والزوايا ترقب المشاهد ، وقد استهواها ما فيها من طرافة وبريق .

وحين يخلو المسرح من أهليه ورواده ، وتسوده وحدة وظلمة ، تنشط الصبية « أم أحمد » وتخطو على المنصة ، لا ينير طريقها إلا تلك الومضات التى تتسرب إلى الداخل من مصابيح الطريق .

ويحلو للصبية أن تعيد على المنصة تمثيل مشاهد مما رأت ، وملء جوانحها إعجاب وتيه .

وازداد بها الشغف ، فحرصت على أن تلتقط ما تسمع من الحوار المسرحى ، حتى لقد استطاعت أن تستظهر الكثير من مواقف البطلات .

وعلى مر الأيام استأثر التمثيل باهتمامها كله ، ولكن ذلك ظل بينها وبين نفسها سرًّا حبيساً .

وباغتها ذات ليلة فنان من شيوخ التمثيل ، وهى على المنصة تعيد تأدية موقف بطاة لإحدى الممثلات النابهات ، فراعه ما تبديه الصبية من حيوية ، وما لبث أن أولاها عطفه ، وشملها برعايته .

وبدأت « أم أحمد » مرحلة جديدة من حياتها فى كنف ذلك الفنان الشيخ ، وكانت يومئذ تستقبل نضارة الصبا ، ومخايل الشباب .

وأمام أستاذها وراعيها ، وقفت مرة تمارس التجارب الفنية لدور « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » ، فرنت عليه مستهدية بما لشيخها من توجيه وتبصير .

وفى إحدى الأماسى قذف بها الممثل الشيخ على منصة المسرح ، وسط الأضواء الوهاجة ، فسطع لها نور مفاجىء ، تضاءلت بجانبه أنوار أخرى ، والتمع لها بريق خاطف بهر العيون . وما أسرع أن هبت فى أرجاء القاعة عاصفة من تهلل وتصايح وتصفيق .

فى تلك الليلة أحست طفلة الأمس ، وفتاة اليوم ، بميلاد لها جديد . ميلاد البارونة « أم أحمد » !

ولم يلبث هذا اللقب أن شاع : الألسن تتناقله ، والصحف تتحدث به ، مقروناً دائماً بهالة من الحفاوة والتمجيد .

وتصاعدت بها الخطا فى طريق الشهرة الجبار ، ودارت بها دوامة الحياة دوراتها العاتية .

وتغير كل شىء فيها ، وفيما حولها ، حتى إنها بدأت تنكر نفسها ، أو بالأحرى تنكر تلك الصبية الصغيرة التى كانت تقبع كومة منسية عالقة بدخائل المسرح وزواياه ، لترقب التمثيل ، فى دهشة المسحور .

وامتدت بها الأيام ، وهى كالصاروخ يشق أجواز الفضاء .

وأحست ذات يوم أن الصاروخ قد اختل توازنه .

وإذا هو يحيد عن طريقه . وإذا هو يهوى .

. . . وفى معزل أشبه بالمنفى ، يعشش فيه الخمول ، تراءت البارونة « أم أحمد » وحدها لا أنيس لها إلا ذكريات غالية تسنح أطيافها كأنما هى رؤيا منام .

ويا لها من ذكريات .

ذكريات ماض حافل بالمغامرات العارمة ، فى دنيا الهوى والشباب ، فى أفق المجد والجاه ، فى أتون المنافسات والأحقاد .

ذكريات مختلطة متداخلة ، لا تكاد معالمها تبين فى وضوح .

ومن بين هذه الذكريات ، تتجلى لناظرها ذكرى خالدة .

إنها ذكرى حبها المضطرم لفتاها البطل ، فى مسرحية « فرسان الليل »

كان هو « فارسها » فى المسرحية ، وكذلك أصبح هو « فارسها » فى واقع الحياة .

إنه حبها الأول .

وإنه هو حبها الأخير .

كم ضحت فى سبيله بعشاق من وجوه القوم ، بذلوا تحت قدميها القلوب والثروات .

لقد لبثت وفية لحبيبها المختار ، على الرغم مما كابدت من صد وهجران .

وتوارى هذا الفارس عن عينيها ، لا تعرف أية موجة طوته ، فلم يعد إلى لقائه من سبيل .

. . . .

. . . كانت « أم أحمد » تعرض ذلك الشريط الخاطف من صور حياتها ، وهى جالسة على متكئها المريح ، عن كثب من النافذة ، ترمى ببصرها فى الفضاء ، وقد تخايلت على وجهها ذى الغضون إشراقة اهتياج .

وبغتة نهضت تتأهب للأمر العظيم .

لقد زارها ، منذ قليل ، رئيس « نقابة الفنانين » ينهى إليها أن « النقابة » اعتزمت إحياء حفل تكريم لها فى « المسرح الكبير » ، تقديراً لما أسدته إلى الفن فى أيامها المواضى من جميل .

وكان من برنامج هذا التكريم أن تعرض « النقابة » مسرحية « فرسان الليل » ، على أن تضطلع « أم أحمد » فيها بدور « البارونة » ، دورها الأصيل الذى شيدت عليه مجدها العريض .

أما موعد هذا الحفل ، فقد اختارت له النقابة اليوم الموافق لليوم الذى اعتلت فيه « أم أحمد » منصة المسرح ، لأداء ذلك الدور أول مرة .

نهضت « أم أحمد » بغتة تحاول أن تجمع شتات أفكارها . . . من أين تبدأ ؟ لا تدرى ! بيد أن أمراً واحداً استولى على ذهنها : أنها سترتقى منصة المسرح ، وأن الأضواء ستسلط عليها من جديد . . . وما تبالى وراء ذلك شيئاً .

حسبها من الأمر أنها ستلتقى بجمهور المعجبين بها ، وستحظى منهم لا ريب بالإعجاب والاحتفاء .

وخطت فى حجرات الدار ، وكأنها « بارونة فرسان الليل » تتهادى على منصة المسرح ، رشيقة الحركة ، متفتحة القلب ، كريشة تميل بها نسمات رقاق .

ووجدت نفسها ماثلة أمام صوان الثياب .

عليها أن تستخرج ثوب « البارونة » ، وتميط عنه غبار الزمان ، لتعيد إليه شبابه ، حتى يكون ملائماً لها فى شبابها الجديد .

ولم تكد تمد يدها داخل الصوان ، حتى انصرفت عنه فى غير وعى إلى صندوق القبعات ، باحثة عن تلك الجمة الذهبية اللون من الشعر المستعار ، شعر « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » . وبينما هى

تتفحص محتويات الصندوق أحست حافزاً يدفعها نحو خزانة النصوص ، لتفتش عن الدفتر الذى احتوى دورها فى تلك المسرحية ، فما أشوقها إلى أن تقرأ منه الساعة بعض فقرات .

وما هى إلا أن تراجعت خطوات ، وقد انسرح بها الخاطر .

وما هى إلا أن توسطت الحجرة ، وقد علت بقامتها ، ورفت على محياها شاعرية ألاقة . وإذا هى تتلو مناجاة غرامية لفارسها المحبوب :

« رميت قلبى بسهام لحظك ، فأصبت منه مقتلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم أعثر لك على أثر .

ترى أين أنت يا « فارسى » الجميل ؟

أليس من أمل فى أن تكتحل عيناى بمرآك ، فتبرد نار شوقى بلقياك ؟

تعال إلىّ تعال . . .

فما من حبيب لى سواك ! »

ومدت ذراعيها ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

وإذا يدان تلامسان يديها !

وإذا صوت هيمان حنون يقول :

« هأنذا أعود إليك يا حبيبتى . . .

هأنذا أرجع بعد طول مغيب ! » .

ورفعت « أم أحمد » جفنيها ، فرأت أمامها « فارسها » القديم . . . فتى أحلامها فى مسرحية « فرسان الليل » .

ورنت إليه مبهورة الأنفاس ، وقد جاشت فى صدرها أشتات المشاعر .

أفى منزلها تحلم هى ، أم على منصة المسرح تمثل ؟

ولم تطل دهشتها ، فقد صكت سمعها ضجة بالباب ، وسرعان

ما تراءى جمع من الفنانين ، رجال ونساء ، يقتحمون الحجرة ، فى زيطة عارمة و يرددون :

« فلتحى البارونة .

وليحى فارس الليل ! » .

ووقفت « البارونة » وسط ذلك الجمع ، وعن يمينها فتاها الأول ، تحيى فوج الزوار ، وكان بعضهم من رفاقها الذين اشتركوا فى حفلتها الأولى ، باكورة ظهورها على المسرح فى عهدها السالف .

ها هم أولاء قد تسامعوا بنبإ تكريمها ، فأقبلوا يحتفون بها ، ويعدون العدة للاشتراك معها فى تمثيل المسرحية المجيدة .

و ياله من لقاء حار طريف ، توهجت فيه العواطف والأحاسيس ، ور.. . لطائف الذكريات والأفاكيه .

إنه لقاء وصل بين الماضى والحاضر ، وامتزج فيه الخيال والواقع ، تساكب فيه أمانى شتى : أمانى شباب مضى واندثر ، وأمانى شيخوخة ، برح فيها رمق الحياة .

وبرز الملقن ، والرواية بين يديه ، وانتظم الجمع حياله صفا ، كأنهم ،د أمام قائدهم يتلقون منه الأوامر .

، بدأت على الفور تجربة « فرسان الليل » استعداداً للحفل العظيم .

. . . .

وحل اليوم الموعود .

وأقبلت طلائع العشية .

و برزت « أم أحمد » بباب الدار ، فرأت مركبة خيل تنتظرها ، كما كان شأنها فى العهد القديم !

وطرحت على كتفيها شملتها الحريرية ، ذات اللون السماوى ، على نحو ما كانت تفعل من قبل .

وانطلقت بها المركبة ، تسلك سبيلها إلى « المسرح الكبير » .
وكان يخيل إلى « أم أحمد » وهى تخترق الطريق ، أن الأنظار كلها تتعلق بها ، وصافحت سمعها هواتف تردد فى إكبار وإعجاب :
« البارونة أم أحمد » . . . البارونة أم أحمد ذاهبة إلى التمثيل !
وعن كثب من الباب الخلفى المسرح ، تراءى البواب يحييها فى هيجة ترحيب .
وعجل إليها يساندها فى النزول عن المركبة .
ثم تقدمها يفسح لها الطريق ، كدأبه فى الأيام الخوالى .
ودخلت « البارونة » المسرح ، وتلفتت حواليها تتوسم ، منتشية بذلك العبق الذى يسطع من الأستار والمناظر وكل ما حوت القاعة .
إنه مسرحها عينه ، مسرحها المعمور ، ذلك الذى تجاوبت أرجاؤه بصوتها مبتهجة تجلجل ، أو باكية تنوح .
وانساقت بها خطاها إلى حجرتها . . .
ها هى ذى المرآة تعلو خوان الزينة ، وها هى ذى أدوات التجميل مبسوطة أمامها تتطلع إليها فى اشتياق .
ووقعت عينها على المشجب يحمل حلة « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » فأقبلت عليها تعتنقها فى هيام . . .
وجاء الماشط إليها يحييها فى ثرثرة مرحة ، ونشط فى أداء مهمته ، يحيل « أم أحمد » ذات الأعوام الستين إلى « البارونة » ذات الأعوام العشرين .
ووقفت « البارونة » وسط الحجرة ، مزهوة بحلتها الفاخرة ، وبشعرها الذهبى المتوهج ، ووجهها تتألق فيه عاطفة جياشة .
وارتفعت الستارة .
وهلت « البارونة » على المنصة فى عاصفة من التصفيق ، وطاقات

الأزهار تستقبلها من كل جانب .

وشرعت تمثل ، وقد سرت فيها حيوية عجيبة ، وكلما مضت فى التمثيل ازدادت إحساساً بأنها تفنى فى دورها ، حتى إنها لم تعد تشعر إلا بشخصية « البارونة » قد تقمصتها ، واستحوذت على أعماق روحها .

إنها بحق تلك « البارونة » الفاتنة . . . تحيا حياتها الصاخبة ، حياة الحب والمغامرة ، حياة الأمل واليأس ، حياة التواصل الحلو والهجران المرير .

وحل المشهد الأخير .

فراحت « البارونة » تناجى حبيبها الغائب ، وصوتها ينم عن شجو وتدله :

« رميت قلبى بسهم لحظك ، فأصبت منه مقتلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم أعثر لك على أثر .

ترى أين أنت يا « فارسى » الجميل ؟

أليس من أمل فى أن تكتحل عيناى بمرآك ، فتبرد نار شوقى بلقياك ؟ .

تعال إلىّ تعال . . .

فما من حبيب لى سواك . . . »

ومدت ذراعيها ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

وإذا يدان تلامسان يديها .

وإذا صوت هيمان حنون ، يقول :

« هأنذا أعود إليك يا حبيبتى .

هأنذا أرجع بعد طول مغيب . »

ومالبث أن احتواها فى حضنه ، فتشبثت به ، وأراحت رأسها على صدره .

وانطلقت أنغام القيثارة ، تشدو بألحان الحب العذاب .

ومضى العاشقان ينقلان خطاهما على إيقاع النغم ، وهما فى نشوة الأحلام .

لقد عاد إلى « البارونة » فارسها بعد طول شتات .

لن يكون بينهما بعد اليوم فراق . . .

سيظلان هكذا متعانقين لا يفصل بينهما شىء .

سيظلان ينقلان الخطا متمايلين على إيقاع النغم ، دون انقطاع . . .

لقد تحققت لهما أمنية العمر . . . !

وأحست « البارونة » أن أوصالها يسرى فيها خدر لذيذ .

وتراخت ذراعاها . . .

وملكها سبات عميق ، سبات شامل موصول . . .

وانسدلت الستارة وئيداً ، وئيداً . . .

وهبت أصوات المتهللين تشيع المشهد الأخير ، المثير !

اللهم اخزك يا شيطان !

١

اتجه الأستاذ « إسماعيل » المدرس صوب الباب ، محتداً ، يقول لها :
لن تطأ قدمى عتبة بيتك . . . اقطعى رجلى لو فعلت !
فتصايحت هى خلفه ، تقول :
فى ستين داهية . . .
وانصرف الرجل ، وهو يرقع الباب وراءه ، مزلزلا البيت .
وانفرج باب فى آخر القاعة ، وأطل رأس معروق ، بطاقية بيضاء ، ونظارة غليظة ، وقال فى صوت هامس :
ماذا جرى يا « جمالات » ؟
— لقد طردته ، ولن أسمح له أن يعود .
فسنحت على وجه الزوج بسمة هزيلة ، وسرعان ما استخفى داخل حجرته ، وهو يرد الباب فى سكون .
لم يكن هذا هو المشهد الوحيد فى نوعه ، فلقد طالما تكرر مثله فى قاعة البيت بين الست « جمالات » ربة الأسرة والأستاذ « إسماعيل » معلم ابنها « محروس » .
وعلى مألوف العادة لم يمض يومان ، حتى رن جرس الباب ، والوقت ضحا ، واليوم يوم عطلة مدرسية ، فتهادت الست « جمالات » متخطرة

بجسمها العبل ، وقوامها المديد ، تستجيب لرنين الجرس ، فلما فتحت الباب بدا الأستاذ « إسماعيل » بوجهه الباش ، وعينيه اللامعتين يردد قوله
نهارك سعيد يا ست هانم . . .
فأجابته فى لهجة مأنوسة ، وهى تفرقع باللادن بين شدقيها :
نهارك مبارك يا أستاذ . . .
ودخل القاعة مرفوع الهامة ، يدق الأرض يخطو رزين ، وقال :
الظاهر أن أزمة الخدم لا تزال مستمرة . . . لقد أتيت بنفسك لتفتحى الباب .

— كما ترى يا أستاذ . . .
وتنهدت ، وهى تواصل حديثها :
شغل البيت كله على دماغى ، وسعادة « البك » ربنا يحفظه لا يهمه إلا نفسه . . . لا يخطر بباله مرة واحدة أن يساعدنى فى شىء .
— اتركى « عفيفى بك » لشغله . . . ربنا يعينه . . . أنا موجود تحت أمرك ! .

وكان الباب الذى فى آخر القاعة قد انفرج قليلا ، وظهر فى محاذرة رأس « عفيفى بك » المعروق بطاقيته البيضاء ونظارته الغليظة ، وما هى إلا أن انسل متراجعاً فى سكون ، وعلى وجهه ترتسم ابتسامته الهزيلة .
. . . وانتهى وقت الدرس ، قضاه الأستاذ « إسماعيل » مع الصبى « محروس » يشرح له مواد التعليم ، ويحفظه إياها فى جهد جهيد ، وترك الحجرة وهو يروح وجهه المحتقن ، متوخياً من فوره المطهى ، حيث تعد الست « جمالات » طعام الغداء ، وشمر كميه ، واتخذ مقعده بجانب الحلة الكبيرة ، وانهمك يقشر البطاطس ، ويفصص الثوم ، ويخرط البصل ، ولسانه منطلق مع ربة البيت فى حديث ذى شجون .

وضمت مائدة الغداء أعضاء الأسرة جميعاً ، « عفيفى بك » الزوج ، و « جمالات » هانم « الزوجة ، و « محروس » الابن ، والأستاذ « إسماعيل » المدرس . . . وليس من عجب أن يعد الأستاذ نفسه عضواً عاملا فى كيان الأسرة ، فأعضاؤها يرحبون بذلك منه ، ويفسحون له بينهم مجلس الصدارة ، لما آنسوه فيه من طيبة وإخلاص ووفاء .

وفى أثناء الطعام ، مضى الأستاذ « إسماعيل » يبادل الزوج أحاديث مستفيضة فى الفن الفرعونى واللغة الهيروغليفية ، فقد كان الزوج ممن ضربوا فى هذه الدراسة بسهم وافر ، حتى اعترف له فى ميدانها بأستاذية أصيلة ، وهو يعمل جاهداً فى إعداد معجم جامع لحضارة المصريين القدامى .

وتشعب الحديث بين الزوج والأستاذ ، حتى ضجر به الغلام ، فشرع يرفع عقيرته بالغناء ، وصاحت الست « جمالات » قائلة :

قلبتم دماغنا بفرعون وهامان . . . مالنا وهذا الكلام الفارغ . . .

وقال « عفيفى بك » للأستاذ :

ذلك شأنها دائماً . . . تضيق بالمناقشات العلمية ، ولا تقدرها قدرها الحق .

فصرخت الست « جمالات » تقول :

حسبها منك اهتمامك وتقديرك . . . إنك تمنحها أعز شىء عندك . . . صحتك ووقتك ومالك . . . أما أنا فماذا تمنحنى يا حسرة ؟ !

فقال الأستاذ « إسماعيل » متشدقاً :

يمنحك الحب يا ست هانم !

فتلاعبت الست « جمالات » بحاجبيها ، وقالت وهى تنغم الكلمات تنغيماً تمثيليا :

الحب ؟ . . . أين هذا الحب يا ضناى ؟ إنه يحبس نفسه فى الحجرة

وينسانى وينسى الدنيا وما فيها . . . فضّها سيرة !

فغمغم الزوج :

ياله من نكران للجميل . . .

ونهض حاملا فوطته على كتفه ، متجهاً نحو حجرته ، وما أسرع أن ردّ خله الباب .

وقال الأستاذ « إسماعيل » وهو يلتقم آخر فص فى برتقالته :

إنه رجل عظيم . . . جدير بكل تقدير .

وضربت الست « جمالات » المائدة بقبضتها ، وهى تقول بصوت راعب :

حضرتك تلم لسانك . . . أحسن !

— إنى أتكلم فى سبيل نفعكم ، ولا أقول قولا إلا من أجل مصلحتكم . . .

— لو كان غرضك منفعتنا ومصلحتنا لكنت أحضرت لى خادمة أخرى بدل التى تركت منزلى منذ أسبوع ، وأنت الذى انتقيتها بنفسك وأحضرتها معك ، وامتدحت سلوكها ومهارتها .

— كانت خادمة ماهرة حسنة السير والسلوك . . . لا شك .

— بل كانت كسلانة ، وأخلاقها لا تطاق .

— يا ست هانم . . . أنت لا يعجبك العجب ، لقد أحضرت لك بدل الخادمة عشر خادمات ، لم تحتمل واحدة منهن الإقامة عندك غير أيام معدودات ، ولم تسلم إحداهن فى نظرك من عيب واتهام . . . كلهن رديئات الخدمة ، سيئات الخلق ! .

— تقصد حضرتك أنى أنا السيئة الخلق ! ؟

— يا ستى عفواً . . . لم أقل ذلك . . . يجب أن تعاملى الخدم معاملة حسنة لتضمنى استمرار الخدمة .

— أتهمنى بالغلظة والفظاظة ؟ . . حقا إنك رجل لا تستحى . . .
— وأنت سيدة حامية . . . لا يحتملها إنسان .
— اخرس . . .
— وإن لم أفعل ؟ .
— قذفتك بفردة حذائى . . .
— إذا فعلت ذلك رددت إليك الحذاء أقوى وأعنف !
— اخرج برا . . .
— سأخرج . . . ولكن اعلمى أن قدمى لن تطأ عتبة بيتك بعد اليوم . . . اقطعى رجلى او فعلت . . .

ونهض كالزوبعة خارجاً ، ورقع الباب وراءه ، مزلزلا البيت ، على حين تصايحت الست « جمالات » تشيعه بقولها :

فى ستين داهية !

وهاج الغلام وماج ، متواثباً فى عبث .

وانصرمت أيام . . .

وصلصل جرس الباب . . .

وفتحت الست « جمالات » . . .

ودخل الأستاذ « إسماعيل » باش الوجه ، يقظ العينين ، يردد قوله :

نهارك سعيد يا ست هانم . . .

— نهارك مبارك يا أستاذ . . .

وأقبلت عايه تواصل قولها :

والله فيك الخير يا أستاذ . . . إنك لا تنسانى مهما يبدر منى فى حقك . . .

— يا سلام . . . وهل عندى غيرك فى منزلتك ؟

فراحت الست « جمالات » تمسح عينيها النديتين ، وهى تقول :

أنا كنت قليلة الأدب معك . . . لازم أنى أستسمحك . . . لازم أنى أبوس رأسك .

— العفو . . . العفو يا ست هانم .

واستطاعت أن تقبل رأسه ، وهو يحاول منعها ، وتابعت قولها :

لا تؤاخذنى . . . الهم كله على دماغى . . . شغل البيت ثقيل . . . وأنا وحدى أقوم به .

— أنا مقدر ظروفك . . . حسبى منك طيبة قلبك وحسن نيتك .

— أشكرك ياأستاذ . . .

— عندى هدية لك . . .

— ما هى ؟ .

— خادمة مثل الجوهرة . . . لن تفرطى فيها أبداً . . .

فأشرق وجه الست « جمالات » ، وقالت :

أين هى ؟ .

بالباب منتظرة أمرك .

فما سمعت قوله ، حتى صاحت :

ادخلى يا بنت ادخلى . . .

ودخلت البنت .

و بعد لحظات كانت تؤدى عملها المنزلى فى نشاط . . .

٢

تم التعارف بين أسرة « عفيفى بك » والأستاذ « إسماعيل » كما يتم التعارف بينها و بين من تحتاج إليه من المدرسين للصبى « محروس » ، جاء به صديق للأسرة ، وقدمه بقوله :

حضرته الأستاذ « إسماعيل »، المربى الكبير ، وصاحب التاريخ الحافل فى التعليم . . .

— تشرفنا يا أستاذ .

والحق أن الأستاذ « إسماعيل » كان قبل إحالته إلى المعاش من عمد التعليم فى المدارس الحكومية ، رجل واجب مثالى ، له قلب من ذهب ، ولكنه لم يحظ بما هو خليق به من مكانة ، أبطأت عنه الترقيات ، فخرج من الخدمة بمعاش ضئيل .

وإذا أردت أن تعلم السبب ، فدونك ملف خدمته ؛ فيه ثغرات قد تعدها أنت من أعمال المروءة ، ولكن القانون يصفها بالتدليس والتزوير : ضبط مرة فى امتحان يملى الإجابة على طالب ، ولما سئل فى ذلك كان عذره أن هذا الطالب لا بد أن ينجح وينال الشهادة ليستطيع الإنفاق على أمه وأخواته، بعد أن مات أبوه ، وفقدت أسرته بموته عائلها الأوحد . . . ويوماً ، عند مراجعة كشوف الدرجات فى المدرسة ، لوحظ أن الرجل يغدق الأرقام جزافاً على طالب عرف بالبلادة والكسل، وكان دفاعه عن نفسه أنه قال :

ما ذنب هذا المسكين ، وقد خلقه الله بعقل يابس متحجر ؟ إنه معذور ، ويجب أن يعان . . .

زاول الأستاذ « إسماعيل» مهمته مع الصبى « محروس » فى حجرته ، يلقنه الدروس فى مجاهدة وصبر ، إذ بدا له من أول لقاء أن الولد لا طاقة له بدرس ولا رغبة منه فى استذكار ، ومن ثم تخلف عن أقرانه عاماً بعد عام ، فعاهد الأستاذ نفسه أن يستدرك أمر هذا الصبى ، ويصلح من حاله ، وينشئه تنشئة جديدة ، وقد اتخذ له وسائل تربوية اكتسبها بفضل تجاربه ، ولم تمض أسابيع حتى غطت جدران الحجرة جداول مزوقة ، وملخصات دروس زاهية الألوان . كذلك ازدانت الأركان

بشهادات التقدير المذهبة والمفضضة فى إطارات براقة ، تحوى حكماً ومواعظ فى الحث على العمل ، وتنشيط الهمة ، وتبشير المجتهد بما ينتظره من نجاح وفلاح . . .

وذات مساء ، سمعت الست « جمالات » ضجة تنبعث من حجرة ولدها « محروس » وهو وقتئذ بين يدى معلمه الأستاذ « إسماعيل » ، فسارت فى محاذرة وتلصص ، وتطلعت من فرجة الباب إلى ما يحدث ، المعلم والولد يغطى كل منهما وجهه بقناع يمثل وجوه الهنود الحمر ، ويتلفع بوشاح من الورق الملفوف ، وهما يدوران فى الحجرة ، متواثبين متصايحين ؛ وفى أيديهما خناجر من الورق المقوى ، فاقتحمت المرأة الحجرة غضبى .

— ما هذه الزيطة يا أستاذ ؟ أهذا هو الدرس الذى تلقنه لتلميذك ؟

فتقدم المعلم منها ، محتفظاً بمظهره الهندى ، وقال وهو يمسح عرقه :

هذه طريقة بيداجوجية تربوية أنا بها خبير . . . علينا يا ست هانم أن نعطى حبة الدواء للمريض مغلفة بالشكولات . . .

فرفعت الست « جمالات » حاجبها الأيمن وخفضته ، وانصرفت تتمصمص شفتيها .

كان الأستاذ « إسماعيل » يحضر للدرس ويمضى ، فلا تعدو علاقته بربة البيت وزوجها العالم الأثرى تحية متبادلة وسؤالا عن الصحة وحديثاً عابراً فى الجو وتقلباته ، وإن جاوز الحديث نطاقه المألوف ففى شأن « محروس » وما أحرزه من تقدم وتوفيق .

وبينما كان الأستاذ « إسماعيل » مرة يلقن غلامه الدرس ، شبت مشاحنات بين الست « جمالات » وخادمتها ، لم تلبث أن انتهت بطرد الخادمة من البيت . وخرج الأستاذ إلى القاعة ، فإذا الست « جمالات » ترغى وتزبد ، فأقحم نفسه يطيب خاطرها ، وأنحى باللائمة على خدم اليوم ، وما تلقاه من عنتهم ووقاحتهم ربات البيوت . . . وامتد بينهما

الحديث الودى ، وكان ختامه قول الأستاذ :

لا تلقى بالا لهذا الأمر . . . سأبحث لك بنفسى عن خادمة ماهرة مهذبة . . . ولن يهدأ لى خاطر حتى أحضرها لك هنا ، وأسلمها إليك !

فتطلقت أساريرها ، وقالت :

الله يسترك يا أستاذ . . .

وخرج الأستاذ فى خطوه المتزن الثقيل ، على حين قصدت الست « جمالات » حجرة زوجها ، أقبلت عليه تقول له :

الأستاذ « إسماعيل » وعدنى بإحضار خادمة ماهرة مهذبة . . . حقا إنه رجل كريم .

وكان « عفيفى بك » منكباً على مكتبه ، غارقاً بين معاجمه الأثرية وأضابيره العلمية ، فرفع رأسه الأشيب المعروق بطاقيته البيضاء ونظارته الغليظة ، ونظر إلى الزوجة يقول :

الأستاذ « إسماعيل » . . . من تقصدين ؟

فتصايحت :

معلم ابنك « محروس » . . .

ــ آه . . . آه . . . حسناً . . . حسناً . . .

وأنجز الأستاذ « إسماعيل » وعده ، فأتى بخادمة لقيت قبولا ورضا بادئ الأمر ، ولكن ما هى إلا أيام حتى وضحت سيئاتها لربة البيت ، فطردتها شر طرد !

وعنى الأستاذ « إسماعيل » بإحضار خادمة أخرى . . . وكان حظها من الطرد حظ سابقتها . . .

وهكذا دواليك . . . الأستاذ « إسماعيل » يحضر الخادمة تلو الخادمة والست « جمالات » تتولى الطرد والإقصاء ، وعلى مر الأيام أصبح للأستاذ عمل راتب غير تعليم الصبى « محروس » ، ذلك هو توريد الخادمات

للبيت فى حمية وحماس !

وأخذت جلساته مع ربة البيت تطول ، ومدارها دائماً الشكوى من سوء أخلاق الخادمات ، وحرص الأستاذ على ضرب الأمثلة التى تؤيد هذه الحقيقة الصارخة !

ولم يكن الأستاذ « إسماعيل » على فرط اجتهاده فى إرضاء ربة البيت ، يسلم من مؤاخذة وشجار ، ولكنه كان يحتمل ذلك عن طيب خاطر ، إذ كان يحس فى قرارة نفسه أنساً وراحة ، وهو فى مجلس الست « جمالات » يطارحها أشتات الحديث ، تروقه ضحكتها النسوية ذات الذيول المزركشة ، ويطيب له أن يشبع ناظريه من قوامها المكتنز ، وهى تتخطر غادية رائحة .

وكان أن دعته إلى الطعام ، احتفاء بورود الكشف الشهرى من المدرسة ، وفيه أن الغلام قد أحرز درجات عالية لم يسبق له إحرازها ، وتطرق الحديث على المائدة إلى شئون الطهو ، فأنشأ « عفيفى بك » يتكلم فى الأطعمة الفرعونية التى كانت توضع عن كثب من نواويس الموتى ، ولكنه لم يستطع أن يسترسل فى القول ، إذ ظهر على وجه الست « جمالات » سيماء الامتعاض ، وأمسكت بزمام الحديث ، مسهبة فيما تجيد من الأطعمة على اختلاف الأصناف .

واستبان للزوجين أن الأستاذ « إسماعيل » ذواقة للطعوم ، خبير بطرائق الطهو ، فقد أفاض القول فى ذلك إفاضة بعثت الست « جمالات » على أن تتفهمها منه ، وواعدته أن تتولى تجربتها بتوجيه منه وإشراف .

وفى غد حضر الأستاذ « إسماعيل » متأبطاً كتاباً ضخماً ، فلما رأى ربة البيت دفع إليها الكتاب قائلا :

هذه هدية متواضعة ، أرجو قبولها .

وقرأت هى العنوان : « أطباق شهية » تأليف شيخ الطهاة فى العصر الحديث .

فتصايحت فرحة تشكر للمهدى جميله ، وتثنى على فطنته . . .

ومنذ ذلك الوقت شهد مطبخ العالم الأثرى زائراً جديداً ، بل ضيفاً مزمناً هو الأستاذ « إسماعيل » . . . يهيئ مع الست « جمالات » مختلف الأكلات الطريفة ، وكثيراً ما خانهما التوفيق فى عملهما ، فلا تملك ربة البيت إلا أن تضيق بخيبة الأستاذ ، وتستشيط غضباً ، وهى تقول له :

والله نفسى أدلق الحلة على دماغك !

— أشكرك . . . ولكن لا تنسى أن محتويات الحلة أغلى مما يحويه دماغى !

ويطلق ضحكة صاخبة ، تقابلها الست « جمالات » بابتسامة اشمئزاز ، وهى تردد :

أنت لا تصلح إلا لتقشير البصل !

وعلى توالى الأيام، ألفى الأستاذ « إسماعيل » نفسه قد أضاف عملا ثالثاً جديداً إلى عمليه السابقين فى تعليم « محروس » وتوريد الخادمات . . . ذلك هو قيامه بمهمة صبى مطبخ ، أو كما يقولون : « مرمطون » !

وقدم مرة ، فراعه مرأى ربة البيت : وجه شاحب ، ودمع يترقرق ، وصوت حبيس .

— الحقنى يا أستاذ .

— مالك ؟ الشر بعيد . . .

— سيموت الولد .

— كيف ؟

— منذ ليلة أمس ، والحمى مشتدة عليه ، وقد أصابه هذيان . . .

واندفع الأستاذ « إسماعيل » إلى حجرة الصبي فى الحال ، ولما أيقن أن الأمر خطير ، هرول يستدعى الطبيب .

ومنذ تلك الساعة ، لزم الأستاذ حجرة الصبي ، لا يبرحها إلا لضرورة ، وهو يتعهد الصبي كما يتعهده ممرض متمرس نشيط : يضع له الكمادات بدقة ، ويواليه بالدواء فى أوقاته ، بل كان يشاركه فى تعاطيه ، متحيلا له بالأضاحيك والفكاهات فى خفة مهرج أصيل . . . ولم يكن يبالى أن يتعاطى فيما يتعاطى ما أعد للمريض من أدوية مسهلة ، غير مستنكف أن يعين الصبي على الجلوس على وعاء الراحة ، لقضاء الحاجة ، ولا يلبث أن يهرع هو بعد ذلك يلتمس الراحة فى « بيتها » المعهود !

وشفى الصبى . . .

وازدادت صلة الأستاذ رسوخاً وتوثقاً بالأسرة ، أو بالحرى بالست « جمالات » خاصة ، فارتفعت بينهما الكلفة ، كما احتدت بينهما المشاحنات واتسع مداها ، وكانت تلك المشاحنات كالملاط للبناء ، يدعمه ويجعله مترابطاً متلاحماً .

وبينما الأستاذ جالس يوماً مع تلميذه يشرح له الدرس ، سمع صوت الست « جمالات » مولولة شاكية ، ففزع إليها ، مهتدياً بصوتها ، فألفى خطاه تحمله إلى حجرة الغسيل ، وربة البيت جالسة إلى طست كبير تعلوه كومة من الملاءات ، وهى تقول فى مرارة :

يا سواد بختى . . . يا سوء حالى . . . يا للمصيبة التى دهمتنى !

فقال لها متسائلا : ماذا جرى ؟

— جرى كل شر . . .

— ولم الشر يا ست ؟

— ألا ترى ما أنا فيه من ورطة . . . ورطة أنت سببها الأول !

— أنا ؟

– نعم ، أنت . . . أنت الذى لا تحسن انتقاء الخادمات ، فأصبحت لا أجد حولى من يعيننى على أعمال المنزل .

وكانت الست « جمالات » ترتدى مباذلها ، ليس عليها إلا جلباب رقيق النسج يكشف عن ذراعين عبلتين ، وصدر ممتلئ رجراج ، وساقان مكتنزتان ، وقدمان عليهما نقش الحناء . . . فمثل الأستاذ « إسماعيل » لحظات ، أمام هذا المشهد المثير ، يعب منه عبا ، وإذا هو يصحو من سكرته ، مناجياً نفسه : اللهم اخزك يا شيطان !

وانبرى يقول لها فى جد :

صحيح . . . أنا المحقوق . . . ولكنى مستعد أن أمسح غلطتى . . . ما الذى يضايقك الآن ؟

– عصر الملاءات المغسولة يا أستاذ . . .

– شغلة هينة يا ستى . . .

وطفق يخلع سترته وصداره ، وسرعان ما شمر بنطلونه حتى الركبة ، وجلس القرفصاء ، ثم مد يده يتناول ملاءة مشبعة بالماء ، جعل يعتصرها فى قوة وعزم ، ولما انتهى منها تناول غيرها ، حتى أتم عصر ما فى الغسيل من ملاءات ونحوها . وترك مكانه وهو يحس أن عشراً من الأيدى قد عصرته عصراً ، وأشبعته طيا ونشرا . بيد أنه رأى أن يكمل واجبه ، فعاد إلى سفط الغسيل يحمله إلى السطح ، و ينشر ما فيه على الحبال ، فى رقابة دقيقة فرضتها عليه ربة الدار فرضاً . . .

ونزل الأستاذ « إسماعيل » إلى ردهة الشقة ، وتهالك على المتكإ ، وهو يمسح عرقه فى تضاحك ، وبعد حين رأى الست « جمالات » ، مقبلة عليه ، وبين يديها صينية يتوسطها إبريق القهوة ، وقد تضوع منه شذا المصطكا والحبهان . . . وجلسا معا يرشفان القهوة الساخنة ، وعلى وجهيهما يتجلى بشر وارتياح .

٣

بعد أن انتهت الحصة يوماً مع الفتى « محروس » ، زايل الأستاذ « إسماعيل » الحجرة ، متوخياً باب الخروج ، والفتى بجانبه ، فلما اقتربا منه ، تناهى إلى سمع الأستاذ خفق قدمين تتخطران . . . وهب عليه صوت يقول :

مساء الخير يا أستاذ . . . مالك تتعجل الخروج ؟

ووقعت عين صاحبة الصوت على كرة في يد الفتى ، فواصلت حديثها تقول :

أتريد أن تشترك مع « محروس » في اللعب بالكرة يا أستاذ ؟

فأجابها باسم المحيا :

ولم لا ؟ .

وفتح « محروس » الباب ، ومرق منه ، على حين تراجع الأستاذ « إسماعيل » خطوات محييا الست « جمالات » تحيته المألوفة ، وختم التحية بقوله :

والصحة ؟ . . . أحسبها على ما يرام .

فأجابت وهي تفرقع باللبان بين شدقيها :

زفت وقطران ! .

— كفى الله الشر . . .

وجاس كلاهما على المتكإ .

— « الروماتزم » ماسك رقبتي ! .

— سلامتك . . .

— وجع فظيع . . .

وتابعت فرقعة اللبان فى تفنن ، ولحظ الأستاذ « إسماعيل » أنها لفت رقبتها بمنديل وردى من الحرير ، هو إلى الزينة والتجمل أقرب منه إلى أن يكون لوقاية وعلاج .

— وكيف تعالجين « الروماتزم » ؟

— بدلك الجزء المصاب بالدهان . . . ولكن يا حسرة . . . لا أجد حولى من يقوم لى بهذه المهمة ، فأضطر إلى أن أتولى الدلك بنفسى . . . وما أصعبه من عمل !

— صحيح . . . عمل مجهد . . .

— وسعادة « البك » ربنا يحفظه لا يسأل عن صحتى . . . لو كانت هناك مومياء محنطة ، شكت له « الروماتزم » ، لسارع إليها يدلكها !

فتعالت ضحكة الأستاذ « إسماعيل » ثم اعتدل فى مجلسه ، يقول :

أنا والله كانت لى خبرة بالتدليك . . . تعلمته على يد ممرض ماهر . . هذا كان فى زمن الفتوة والشباب !

— هل أفهم من كلامك أنك تستطيع تدليك رقبتى ؟

— طبعاً أستطيع . . .

فكسرت من جفنها ، وقالت فى تخابث :

وهل تسمح لنفسك بتدليك رقبة سيدة يا أستاذ ؟

— وما المانع ؟

فتوقفت عن مضغ اللبان هنيهة ، وهى تحدق إليه ، ثم استأنفت تقول :

ألا تستحى من قولك هذا يا شيخ ؟

— وفيم الحياء ؟ . . . أنا رجل جد .

— تعنى أن عينك لا تزيغ أمام مفاتن السيدات ؟

— مطلقاً . . .

فرمته بنظرة نسوية صائدة ، وقالت له فى نبرات متغمة :
حتى معى . . . معى أنا ؟ !
وتلاقت أعينهما . . .
وهب الأستاذ « إسماعيل » واقفاً يردد فى وليجة نفسه :
اللهم اخزك يا شيطان !
ثم قال لها جهرة ، وهو يحاول أن يجعل الموقف موقف مهازلة ومزاح :
والله يا ست « جمالات » ، لو انفردت بك ، ولم يكن بيننا ثالث على ظهر الأرض ، لما رفعت إليك بصرى بنظرة غير بريئة !
— . . . يا سلام !
— أنا حين أكون معك ، لا أعد نفسى الأستاذ « إسماعيل » ، بل خالتك « أم إسماعيل » !
وأطلق ضحكة شوهاء ، لاقتها السيدة بصمت مغلق .
وقامت وهى تسوى ثوبها عليها ، وقالت :
أتعنى أننى لا أستطيع أن أهز عاطفتك ؟ !
— عفواً . . . ولكن . . .
— لست أنا قد المقام طبعاً !
— يا ستى . . . العفو . . .
— لا أستأهل نظرة منك . . .
— لم أقصد ذلك . . .
— تقصد أنك لا شعور عندك ولا إحساس . . .
— أنا لا شعور عندى ولا إحساس ؟ كيف ذلك يا ستى ؟
— حكمت على نفسك بأنك لست رجلا كالرجال !
— أنا رجل بحق . . ولا أرضى أن أكون من صنف النساء . . .
فألقت عليه الست « جمالات » نظرة نكراء ، وقالت :

أنت قليل الأدب . . . وقح !

— الله ! . . .

— . . . ودون أيضاً !

— مهما قلت ، فأنا عند موقفى لا أتزحزح . . .

— اخرس ، قطع لسانك .

— وإن لم أخرس ؟

— قذفتك بفردة حذائى . . .

— سأرد إليك الحذاء أقوى وأعنف . . .

— اخرج برا . . .

— لن تطأ قدمى عتبة بيتك بعد اليوم . . .

— فى ستين داهية

ورقع الباب خلفه ، مزلزلا البيت . . .

وانفرج باب آخر فى نهاية القاعة ، وأطل منه الرأس الأشيب المعروف بطاقيته البيضاء ونظارته الثقيلة ، وهمهم :

ماذا جرى يا « جمالات » ؟

— جرى أن حضرة المدرس الذى اخترته سعادتك للولد ، رجل وضيع يحتقر السيدات ، ولا يعرف لهن أقل اعتبار . . . لا أحب أن أرى له وجهاً فى البيت !

وظهرت نتائج الامتحانات ، ونجح « محروس » ، وعد من حملة الشهادات ، فضج البيت ضجيج الطرب والابتهاج ، وفتح الباب على مصراعيه لقدوم الأستاذ « إسماعيل » . . . وما كاد يخطو فى الردهة خطواته الوئيدة الهينة حتى استقبلته الست « جمالات » بأغرودة رنانة لها أصداء مثيرة ، وصاحت فى تحمس ، وقد طوقت كتفيه بذراعيها العبلتين :

مكافأتى لك هذه القبلة !

وقبل أن يحير جواباً ، ألفاها تطبع على خده قبلة عارمة ، وهى تقول :

والله غيرك يدفع فيها ألوف الجنيهات ، ولا ينالها . . . !

وقضت الأسرة وقتاً هانئاً فى صحبة الأستاذ « إسماعيل » ، تتبادل الملح والمطايبات . ولما رجع إلى شقته المتواضعة ، واحتوته حجرته ، ترامى على الفراش منسرحاً فى أخيلة شتى . . .

ما أعذبه وقتاً ذلك الذى قضاه مع أسرة العالم الأثرى ، وهو الذى أمضى حياته لم يسكن إلى زوج ، ولم يؤنسه ولد ، ولم يألفه قريب . . . هنالك زوجه وولده وذوو قرباه . . . هنالك نشطة الحياة وأنسها وبهجتها من حوله . . . أما هنا فى مخدعه فليس إلا العزلة والوحشة والاكتئاب ! . . .

ورفع يده إلى خده يتحسس موضع القبلة العارمة ، قبلة الست « جمالات » ، وقد شاعت على محياه بسمة رقيقة حالمة .

٤

وعلمت الأسرة أن الأستاذ « إسماعيل » أصبح نزيل أحد المستشفيات لمرض أصابه ، فانتقلت إليه بكامل هيئتها ، محملة بالهدايا والألطاف ، ولبثت معه اليوم تتعهده بالرعاية والحنان ، ووضح لها أن مرضه ليس بالهين ، وأن حياته على خطر . . .

وتوالت زيارات الست « جمالات » له فى مستشفاه ، تقيم من نفسها ممرضة له ، وتفرض عليه سلطانها التام ، وهو مذعن لذلك : سعيد به ، يستشعر ضعف الطفل وتطلعه إلى من يحنو عليه ويرعاه .

ومرة ، وهى تجرعه الدواء ، نظر إليها نظرة عميقة ، وقال :

وإن مت يا ست « جمالات » . . . فماذا تفعلين ؟ '

فأجابت وهى تعيد زجاجة الدواء إلى المنضدة ، تائهة النظر :

لا تخش من شئ . . . سأحيي لك ليلة مأتم عامرة بالمشهورين من القراء . . . ولن ينقطع لى صوات حتى الصباح !

وما هى إلا أن ثابت إلى وعيها ، فضربت صدرها بيدها ، وتدانت منه وتقول :

إياك أن تعملها يا مخبل !

— وإن عملتها ؟

— خبر اسود . . . ربما طلع فى مخى أن أرمى بنفسى من الشباك !

فأمسك بيدها ، وقد تألق وجهه ، وقال يخافت بصوته :

يا سلام . . . ترمين بنفسك من الشباك ؟ !

ومسحت الست « جمالات » ظلال دمعة ترقرقت فى مآقيها ، وقالت متلطفة :

إذا مت فسأخاصمك . . . أفهمت ؟

وابتسما ، ثم تضاحكا طويلا .

لقد أيقن الأستاذ « إسماعيل » أن هناك شخصاً معيناً يريد له الحياة ، شخصاً اتصلت أسبابه به ، شخصاً تتعرض حياته للخطر إذا تعرض هو له . . . لزام أن يحيا . . . لزام أن يهزم الموت . . . لزام أن يستخلص نفسه من براثن العدم !

لن يموت . . . لن يموت . . . ما دام هناك من يريد له البقاء .

وزايل الأستاذ « إسماعيل » مستشفاه ، وهو مكتمل العافية ، ورجع إلى قواعده سالماً فى بيت الست « جمالات » : يورّد الخادمات ، ويجلس عن كثب من الحلة الكبيرة فى المطبخ يقشر البصل ويفصص الثوم ، ويتراءى كل أسبوع مرة فى حجرة الغسيل يعصر الملاءات وينشرها فى

السطح على الحبال ، ثم هو بعد ذلك الجليس الأنيس ، يناقل رب البيت الحديث فى معالم الحياة على عهد الفراعنة ، وفوق هذا كله يشرف على تعليم الفتى « محروس » ، يلقنه الدروس ، ويوجه سلوكه التوجيه القويم .

كل ذلك كان الأستاذ « إسماعيل » يمارسه فى نجاح منقطع النظير ، إلا أن أمراً واحداً لم يقو على الاضطلاع به ، مع سهولته وضآلته . . . ذلك هو القيام بتدليك رقبة الست « جمالات » عند ما يصيبها « الروماتزم » اللعين ، فقد كان يمثل أمامها ، وهو يحدق إلى المنديل الحريرى المورد حول رقبتها ، ويتيه لحظات ، مصغياً إلى صوت نفسه يردد :

اللهم اخزك يا شيطان !

الطاقية

عند ما استفقت من غفوة القيلولة ، لم أجد من نفسى رغبة فى مبارحة الدار ، فقد كان عملى صباح اليوم فى الوزارة شاقاً أجهدنى ، فآثرت الاعتكاف فى أمسيتى ، أنشد الراحة والجمام .

وكنت أحتفظ بصندوق أطلقت عليه اسم « صندوق الذكريات » ، جمعت فيه أشتاتاً من الصور والتذكارات من مخلفات الماضى ، أحتفى بها وأعتز .

وطاب لى أن أقصد إلى الصندوق ، وأن أقلب محتوياته ، وتعلقت نظرتى اتفاقاً بلفيفة لطيفة ناعمة الملمس ، معقودة بشريط من حرير ، فتناولتها بين يدى أميط عنها الغبار ، ثم ألفيتنى أحل الشريط من حولها ، وأبسط ما فيها ، فإذا هو « طاقية » . . . طاقية غلام ، يشهد مظهرها الساذج وما فيها من وشى زاهى الألوان بأنها بضاعة ريفية الطابع ، لعصر سلف .

وأبهجنى مرأى « الطاقية » ، فانتحيت بها ركناً فى الحجرة ، أتفحصها ملياً ، وأنشر ذكرياتى معها من طوايا الزمن البعيد .

وتواردت المشاهد على مخيلتى . . .

ورأيتنى أمام « ستوتة » . . . « ستوتة » الصغيرة ، وهى تمد يدها على استحياء بتلك « الطاقية » ، هدية تتودد بها إلىّ فى يوم الرحيل . وما لبثت أن مالت على أذنى تقول : إنها ابتاعتها من « سوق الأربعاء » وأدت ثمنها

مما اقتصدته من نقودها الخاصة .

وفى حيرة وارتباك ، تلقيت منها « الطاقية » ، وما أذكر أشكرت لها صنيعها بى ، أم ظلت أناملى تعبث « بالطاقية » دون أن أنبس بقول .

كنت صبيا أدنو من العاشرة ، على حين كانت « ستوتة » تصغرنى بنحو عامين ، وقد مكثت فى صحبتها فى قرية « السلامية » شهراً ما كان أطيبه وأحلاه ، حيث جمعتنا دار أبيها « الحاج أبو صالح » ، وهو رجل من أواسط القوم ، ميسور الحال ، يحيا حياة الريفى الأصيل ، وبينه وبين أبى أواصر ود . وكان الربيع يومئذ قد أوشك أن ينصرم ، وأنا أعانى هزالا ينذر بسوء المصير ، فاستجاب أبى لمشورة الطبيب أن يبعث بى إلى الريف ، لأنعم فيه بجو طلق ، ومنظر بهيج ، وغذاء طيب مرىء .

ولم يتخل عنى أبى فى هذه السفرة ، فركبنا القطار إلى محطة « السلامية » ، وبلغناها ساعة الأصيل ، فألفينا « الحاج أبو صالح » ينتظر قدومنا ، وقد أعد لنا ركائب من الحمير يحرسها نفر من الغلمان ، وسرعان ما امتطيت ركوبتى ، وأنا مرح نشوان ، وسرنا فى طريق ترب ، تحف به حقول شاسعة على مد البحر ، والهواء رخى عبق برائحة الزروع .

ولم يطل بنا المسير أكثر من نصف ساعة ، فاستقبلتنا قرية « السلامية » ذات الدور المتخاضعة ، والجميزات العتيمة ، وذلك الجدول الضيق تتهادى على صفحته وعلى حافاته أسراب من الأوز والبط

ثم جاز موكبنا بدرب ملتو حافل بكومات التراب وبرك الماء ، والأطفال أنصاف عراة يتواثبون هنا وهنالك متضاحكين .

وأخيراً أوفينا على الدار ، فكان احتفاء الأهل بنا بالغاً الغاية ، وتجلت الأريحية الريفية فيما أعدوه لنا من مأوى ، وفيما حيونا به من طعام وشراب.

وفى ضحوة غد زايل أبى القرية ، بعد أن تركنى وديعة عند « الحاج أبو صالح » وأهل بيته ، فأحسست تهيباً ووحشة ، وجلست وحيداً على



دكة بجوار باب الدار أرقب السابلة .

وما هى إلا أن شعرت بيد تربت كتفى ، يد « ستوتة » ابنة « الحاج أبو صالح » ، وكنت قد رأيتها البارحة ؛ وقضيت معها قليلا من الوقت نتعارف . وهى صبية سمراء ، بشرتها فى لون النحاس المصقول ، وعينها خضراء صافية تماثل لون البرسيم فى إبانه .

قالت لى « ستوتة » ويدها على كتفى ، والابتسامة تسطع على محياها :

تعال نلعب .

وأمسكت بذراعى ، فنهضت معها ، وخطونا فى الدروب الترية الملتوية ، فسألتها :

إلى أين نذهب ؟

— إلى الجرن .

— الجرن ؟

— نعم . . . الجرن . . . ألا تعرفه ؟

وأمضينا ساعة فى الجرن ، راكبين النوارج مع الفلاحين ، ندرس القمح ، ويعلو صياحنا على خوار الثيران ، نحثها على استكمال دوراتها المألوفة . ولم نكتف بهذا كله ، فتركنا الجرن إلى أرجاء القرية ، نتسلق الجميز الدرم المجعد السيقان ، وطعمنا من ثماره المعسولة . وخاضت أقدامنا فى ماء الترعة الضحل ، ثم جلسنا على حافة الترعة نصطاد صغار السمك ، ونلقى به إلى الكلاب الجائعة ، ثم اجتمعنا مع الرفاق نلعب « السيجة » ، وانطلقنا فى الحقول نجمع أعواد « السريس » ، وأخيراً قصدنا إلى « الزاوية » وتطلعنا إلى « الكتاب » المهدم بجوارها ، وقد التفت فيه حلقة الغلمان يقرءون ويكتبون . وهكذا قضيت النهار مع « ستوتة » فرحاً نشيطاً ، تفرعنى بمشاهد طريفة .

كانت تجتاحنى هيجة عارمة أطاحت بتهيبى ووحشتى ، فلم يكد

الليل يقبل حتى صرت و « ستوتة » إلفين متلازمين . . . ولما أزف موعد النوم اعتلينا معا سطح الفرن ، فقد كان هو الموقع المفضل فى الدار ، بل فى كل دار ريفية ، وتمددت « الحاجة أم صالح » تفصل بيننا كما كان الحسام الماضي يفصل فى النوم بين « الشاطر حسن » و « ست الحسن والجمال » فى أساطير الأولين .

ما أعذب تلك الليالى التى نمت فيها فوق سطح الفرن ، قريباً من « ستوتة » . . . كان الدفء الذى ينبعث منه يشيع فى أوصالى ، فيبعث فيها خدراً لذيذاً يثير فى نفسى غرائب أحاسيس .

وطابت لى فى تلك الفترة حياة الطلاقة والمراح ، حياة الفطرة بين قوم لا يعرفون تكاليف المدينة وأرضاعها الخانقة . و « ستوتة » الصغيرة رائدتى فى مغامراتنا اليومية ، لنا فى كل يوم كشف جديد ، أو لعبة لم يسبق لى بها عهد .

وشاء رب الدار أن يزيد فى الحفاوة بى ، فأقام فى أمسية رائقة حفل سمر ، تميز بطابعه الريفى الأصيل .

واحتوانا فناء الدار ، فتحلقنا . . . والمشاهد تتوالى أمام عيوننا ، مشاهد مفرطة السذاجة ، نستقبلها بفرحة غامرة ، لا تكل أيدينا من التصفيق ، ولا تفتر حناجرنا عن الصياح .

وما زلت أذكر شخصية المهرج ، وقد طلا وجهه بالدقيق ، وامتطى جريدة طويلة كان يدعوها الفرس المطهم ، وشخصية الزمار الذى يطلق أنغامه ، وخصره يتلوى ، ورأسه يتطوح ، فيدور زر طرطوره الطويل دورات سراعاً على إيقاع المزمار . وهناك الطبال بكرشه المنبعجة ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، منشداً مع المرددين من الصبية ، نشيده الموحد ، يعيده بين الفينة والفينة :

« إن لا قاكم حبيبى   سلموا لى عليه »

وفى ختام العرض اجتمع الممثلون فى الحلقة ، واشتركوا فى رقصة مائجة ، وقرع الطبل يدوى كأنه عزيف الجن ، فسرت فى أوصالى حماسة ، وأخذت بيد « ستوتة » ودفعت بها إلى البهرة ، وجعلنا نسهم مع اللاعبين فى الرقص والتهريج .

ولما انفض العرض ، دعانى رب الدار إلى سماط ريفى طريف ، مده فى الفناء . . . كان الحصير مبسوطاً على الأرض ، وعليه رصت صحاف الثريد وقعاب القشدة ، وصوانى الفطير الرحراح : وما إلى ذلك من مآكل فلاحية صميمة . فجلسنا متربعين ، وبيننا فرقة اللاعبين ، وجعلنا نصيب طعامنا الشهى فى شغف ، وحلا لنا السمر من بعد إلى هزيع من الليل .

* * *

وعدت إلى « الطاقية » أقلبها بين يدى ، وظل ابتسامة يتخايل على وجهى . لقد بقيت قابعة فى « صندوق الذكريات » نيفاً وثلاثين عاماً ، منذ كانت زيارتى لقرية « السلامية » ، تلك الزيارة التى كانت الأولى والأخيرة .

كرت الأيام . . .

كرت تبدل من مظاهر الحياة ما تبدل ، ولفنا الزمن ، ومرت بنا أحداث تباعد بيننا وبين مواطن الذكريات ، وتنسج عليها خيوط النسيان . ولكن هل إلى ابتعاث الماضى من سبيل ؟ أو بالأحرى ألا من وسيلة نخادع بها أنفسنا ، فنحاول أن نحيا بين صور ذلك الماضى الحبيب على أى وجه يكون ؟

ومن أعماق نفسى ثار بى حنين متضرم إلى رؤية قرية « السلامية » وما ضمت من أماكن ومشاهد وأناس .

وما هى إلا أن رف أمام عينى طيف « ستوتة » مشمرة فى جلبابها الأحمر الفضفاض ، زاهية بعصابتها ذات الهداب الهفهاف ، وهى تلوح

لى بذراعها تدعونى أن أقبل عليها .

وعلى الفور تجلت لى صفحات من أيامى الحاضرة كئيبة راكدة ، وخيل إلى أنى لست أكثر من دابة مكدودة تنوء بحملها الثقيل ، وضربات العصا تلهب ظهرها فى غير إشفاق .

وانقدت بين جوانحى ثورة سخط على حياتى التى أكابدها ، بل على الحياة نفسها من حولى . . . أليس من حقى أن ألتمس التحرر من أغلال صعاب يكبلنى بها العيش فى المدينة ؟ أما آن لى أن أستمتع بعض وقت بعيشة البداوة فى بساطة وسذاجة ، نائياً عن مشكلات العقل والتدبير والحساب ، متفيئاً ظلال الخفة والسكينة والاستخفاف ؟

لم لا أهرب إلى الريف ، أقضى فيه بضعة أيام ؟

لم لا أفر إلى « السلامية » ، القرية الحبيبة ، أتذوق فيها حلاوة الماضى الرخى ؟

لا أذهب غداً إلى مقر عملى ، فسأتخذ طريقى إلى دار « الحاج أبوصالح » إلى . . . « السلامية » .

ذلك ما بنيت عليه عزمى .

وفى أصيل غدى ، كنت أزايل القطار ، ومعى حقيبتى الصغيرة تحوى قليلا من المتاع ، وشكولا من الهدايا ، وتحسست جيبى ، فألفيت « الطاقية » فى مكانها الذى ائتمنته عليها ، وشخصت عينى إلى مبنى المحطة ، أتأمله وأنا أراجع نفسى : أترانى أخطأت القصد ؟ أهذى محطة « السلامية » حقا ؟ إن صورتها فى ذاكرتى تمثل بناء أغبر متداعياً لا تنسيق فيه : أما ما أشهده الساعة فهو مبنى ناصع البياض ، عصرى الهندسة... وكدت ألحق بالقطار ، لولا أن أخذت عينى لافتة أقيمت على الرصيف ، تهتف بالزوار :

مرحباً بكم فى « السلامية » !

ولاحت فى خاطرى لافتات على هذا النحو ، تواجه زوار المطارات ومداخل العواصم والمدن الكبرى.

وقفت أمام لافتة « السلامية » أتأملها مليا ، وقد سنحت على فمى ابتسامة غامضة .

ودفعت بخطاى أجتاز المحطة .

وألقيت ببصرى حوالى ، أتفقد مربط الحمير . . . فلم أر إلا سيارة عامة يهرول إليها الناس متقافزين متزاحمين بالمناكب .

ومر على مقربة منى شاب ريفى ، مبسوط القامة ، متألق النظر ، فاستوقفته أقول :

أين مربط الحمير ، ولا تؤاخذنى يا حضرة ؟

فأجابنى مبتسما :

ليس هنا مربط للحمير أو للبغال . . . ولا تؤاخذنى يا أستاذ !

— أريد أن أذهب إلى قرية « السلامية » . . .

— تستطيع أن تذهب إليها راكباً السيارة العامة ، وهناك سيارات خاصة تحملك إليها إن رغبت ، فانتظر إحداها هنا حيث أنت . . .

— لم أحضر لأركب سيارات عامة أو خاصة . . . أنا شبعان منها . . . أريد أن أمتطى حماراً . . . أريد أن أستمتع بركوب الحمير . . .

فاتسعت ابتسامة الفتى ، وقال :

ليس للحمير المأجورة هنا وجود . . .

— أمر عجيب . . . هل أقفر الريف من الحمير يا حضرة ؟

— لم تعد تتخذ وسيلة للانتقال ، فقد حلت محلها السيارات .

وتركنى وهو يتضاحك ، ووقفت حيران هنيهة . . .

وأخيراً مر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، ومن حسن حظى أن الدابة كانت من جنس الحمير . . . فأشرت إليه أستوقفه ، وما إن دنوت

منه حتى قلت :

أريد الوصول إلى قرية « السلامية » . . . كم تطلب من أجر على المشوار ؟

فرمقني بطرف عينه ، وهو معتلٍ حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

أنا لا أؤجر حماري للركوب . . . يا أفندم !

وهم أن يتابع سيره ، فأمسكت به أقول :

سأعطيك أجرة سخية ترضى بها . . .

ولم أتوان في إخراج قطعة فضية كبيرة ، وأنا أواصل الحديث :

ها كها . . .

فرمق الرجل القطعة في يدي لحظات ، ثم مد يده قائلا :

هاتها . . .

ونزل عن الدابة ، فما أسرع أن امتطيتها .

وسار بي الحمار الذويني ، وصاحبه يتبعه في تخطر ، كأنما هو في نزهة ، وكان ضنيناً بالكلام ، على محياه خيلاء . فأخليته لشأنه ، وجعلت أسرح الطرف حوالي في الحقول المترامية ، وأستنشي هواء الأصيل المشبع برائحة الزروع . بيد أن السيارات عامة وخاصة ، كانت تجوز بنا كالزوابع الهوج ، تملأ الجو غبرة ، وتصم الآذان بما لها من صفير أرعن ، وضجة شعواء .

وواصلنا سيرنا الهين ، وقد أخذت الشمس تنحدر للمغيب ، وتبدى لي قرصها المتوهج من بين النخيل يبعث إلينا تحية المساء .

وتراءت لي مجموعة من الدور الريفية على طراز عصري مستحدث ، استرعت انتباهي بجمال تنسيقها ، وطرافة هندستها ، فملت ببصري إلى رفيقي الصامت المتخطر أسأله :

ما اسم هذه القرية ؟

فأجابنى وهو يرمى ببصره أمامه فى غير مبالاة :

إنها « السلامية » . . . القرية التى تبغيها .

فعجلت قائلا :

أواثق أنت ؟

فحدقنى بنظرة جافية ، وقال :

أنا من سكان البقعة يا أفندم . . .

ــ ولكن . . . يا حضرة . . .

وألفيته يأخذ بزمام الحمار يقفه ، وقال فى نبرة حاسمة :

تفضل . . . انزل . . . لقد وصلنا . . .

ونزلت عن الدابة ، وفى يدى حقيبتى ، وقلت مهمهماً :

لم تكن القرية على هذا المظهر فيما مضى . . .

فقال وقد ركب دابته :

الدنيا تغيرت يا أفندم . . .

ولكز خاصرة الدابة ، فانطلقت به تعدو . . .

وبقيت وحيداً على حافة الطريق ، أتوسم القرية فى إعجاب لا يخلو من وحشة . لقد أحسست على الرغم منى بشعور ضئيل ، وكأننى قد ضللت السبيل .

ومر بى شخص عارى الرأس ، يبدو من ملابسه الحضرية أنه من أهل المدن ، ولاحظ على الفور أنى غريب شبه تائه ، فدنا منى يقول :

أتبحث عن شىء يا سيد ؟

ــ أبحث عن قرية « السلامية » . . .

فقال متلطفاً :

إنها أمامك .

ـ أتكون قد تغيرت ملامحها إلى هذا الحد ؟ أكاد أنكرها .

ـ أنت على حق ، لقد زالت معالم القرية القديمة ، وأنشئت عن كثب منها قرية جديدة عمرها عام واحد . . . إنها قرية نموذجية . . . تجربة فريدة من تجارب العصر الحاضر .

فلذت بالصمت أفكر ، ثم انثنيت أسأله :

وأهلها . . . سكانها الأصليون ؟

ـ إنهم فيها دون شك .

فأجزلت له الشكر ، محيياً إياه ، فودعني ومضى لطيته .

وظللت أنا في مكاني لا أبرحه ، وكانت طلائع العشية قد احتلت أرجاء الأفق ، تزيدني شعوراً بالوحشة والاغتراب .

وهاجت بي الخواطر والذكريات .

مالي وللقرية النموذجية بحسن تخطيطها وتنسيقها وما تحويه من مظاهر حضرية ألاقة ؟

لقد جئت أجتلي معالم القرية القديمة ، كما هي ببساطتها وسذاجتها وجمالها الطبيعي ، لا برقشة ولا زخرف .

كلا . . . لن يكون لي في هذا البلد مقام . . . سأعود على الفور إلى « القاهرة » .

واعتزمت أن أركب أول سيارة قادمة تنقلني إلى المحطة .

وبينما أنا في وقفتي أترقب ، إذ سطعت الأنوار بغتة ، تبدد غاشية الظلمة ، وأذهلني أنها أنوار كهربية ، واستقرت عيني على القرية ، فإذا هي تسبح في أضواء . . . واستبانت لي زمر من الناس يتوافدون عليها ، وهم يتصايحون ويتضاحكون . ولم يمض طويل وقت حتى اشتدت زحمة الوافدين ، وتعالت منهم ضجة .

وما هي إلا أن تجاوبت أنحاء الفضاء بصوت جهوري منبعث

من « مجهار » يلقى بأقوال متتابعة ، ليست واضحة النبرات ، فهمت منها أنها برنامج لحفل يعدونه . وملت على شاب فى حلة مهندمة ، يسير صوب القرية ، فقلت له :

أتحتفلون بليلة عرس فى « السلامية » ؟

فتضاحك يجيب :

نعم وإنها لليلة عرسها . . . عرس القرية نفسها !

— عرس القرية ؟

— فى مثل هذا اليوم من عام مضى ، دشن المحافظ القرية الجديدة وفتح أبوابها لمن يعمرونها . إننا نحتفل الليلة بعيد ميلادها الأول .

— أأنت من سكانها ؟

— إنى طالب فى معهدها الزراعى .

فهمهمت أردد :

معهدها الزراعى ؟

وتراءت فى مخيلتى على الفور صورة لم أنسها لطرافتها ، صورة « كتّاب القرية » فى العهد السالف ، وكان هو المعهد الوحيد الذى يتلقى فيه الصبية كل ما يتلقونه من تعليم . . . مبادىء القراءة والكتابة وطالما طارتنه مع « ستوتة » فى جولاتنا اليومية ، فإذا هو حيطان من اللبن متصدعة يصل بينها سقف من فروع الأشجار العتيقة ، وفى صدره نقيه حطمته السنون ، يتبوأ دكة خشبية ، ومن حواليه تنبعث أصوات الأطفال متربعين على الأرض ، وهو يتعهدهم بالدرس والتلقين . وبين الحين والحين يلوح لهم فى يده اليسرى بعصا من جريد ، أما يده اليمنى فهى فى ذهاب وأوبة بين فمه وصحفة الطعام ، وعيون تلامذته محملقة فيه بنظرات جائعة منهومة ، وآذانهم غافلة عن سماع ما يقول :

وأنبهنى صوت الطالب الزراعى يقول :

لاتؤاخذنى ، إنى ذاهب إلى الحفلة . . .

فهز زت يده هزة الشكر .

وتوالى الناس فرادى وجماعات إلى « السلامية » ، واسترسل « المجهار » يواصل إذاعته فى حماس شديد ، وازدادت الأضواء من سطوع ، وارتفعت أنغام الموسيقى تملأ النفس من بهجة وإيناس .

وجعلت ألقى لما حولى سمعى و بالى . . .

و وجدت قدمى تنساق بى نحو مدخل القرية ، وجرفنى التيار يطوينى فى جوفه ، و إذا أنا فى ساحة قد أعدت على غرار ساحات الملاعب الشعبية « السيرك » : حلقة فسيحة نصبت فيها آلات ومعدات ، ورصت حولها المقاعد ، وقد أخذ الجمهور يشغلها .

سرت كالتائه ، يدفع بى الناس يمنة ويسرة ، وقد اختلط على الأمر ، فلم أعد أدرى ما أنا فاعل ؟ أأبحث عن مقعد أستريح بالجلوس عليه وأشهد منه احتفال الليل ؟ أم أعود أدراجى إلى « القاهرة » ؟ وانتهى بى المطاف إلى أحد الأبواب ، ورأيتنى أمام شخص يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشافة ، يلف على ذراعه شريطاً أبيض عريضاً محلى بشارات ملونة ، فما شككت أنه من أصحاب النفوذ فى الحفل ، فتقدمت إليه أحييه ، فرد تحيتى فى أدب ، فقلت له :

أنا غريب عن القرية ، قدمت عليها أزور بعض المعارف ، فهل لى أن أعلم أين تسكن أسرة « الحاج أبو صالح » ؟

— لن تجد الليلة أحداً فى داره . أهل القرية إما بين النظارة يتفرجون وإما بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل .

— ألا تستطيع أن تعيننى على أن ألقى واحداً من تلك الأسرة ؟

— من العسير عليك أن تجد ضالتك بين المتفرجين ، وهم حشد كما ترى كبير . وقد يسعفك الحظ إذا بحثت هنا بين جماعة الفنانين . . .

تفضل . . . ادخل . . . ادخل . . .

وفسح لى ، فدخلت . . . وواجهنى على الفور هرج ومرج ، زمر من الفتيان والفتيات فى غدو ورواح ، يتصايحون ويتضاحكون ، وهم رافلون فى ثياب زاهية بهيجة ، مختلفة الشكول والألوان .

فانتحيت ركناً أشهد منه ما يدور حولى ، وبيدى حقيبتى الصغيرة ، تدل على أنى زائر غريب . وكلما جاز بى شخص حاولت أن أستوقفه ، ولكن ضاعت محاولاتى سدى ، فلم يعرنى أحد بعض التفات ، وأحسب أنهم ظنوا أنى من عمال المسرح ، أو من مساعدى التصوير والإخراج . . .

ونالنى ضيق ، وهممت أن أبارح المكان ، فإذا عينى تتصيد على حين بغتة وجهاً أسمر فى لون النحاس المصقول ، بعينين خضراوين تماثلان فى صفائهما لون البرسيم فى إبانه .

وانطلقت من حلقى صيحة :

« ستوتة » !

والتفتت نحوى صاحبة الوجه النحاسى والعينين الخضراوين ، فهرعت إليها مهتاجاً ، وسمعتها تقول مشدوهة :

من تريد ؟

فأجبت راعش الصوت :

أريد « ستوتة » . . . « ستوتة » . .

فقالت فى صوت هادئ :

لست « ستوتة » . . .

— من تكونين إذن ؟

— اسمى « فيفى » .

— و « ستوتة » بنت « الحاج أبو صالح » ؟

فحملقت إلىّ بعينيها تحاول استبطان أفكارى ، ثم قالت فى بساطة :

لعلك تعنى أمى !

ــ هل أنت ابنة « ستوتة » . . . ؟ هل جدك هو « الحاج أبو صالح »

ــ نعم . . .

فقلت ، وأنا أعالج أن أملك مشاعرى ، وأستعيد هدوئى :

حتما لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . . . معذرة !

ــ ألا تفصح عما تريد ؟

ــ جئت إلى « السلامية » لأزور الأسرة ، فقد نعمت بضيافتها شهراً كاملا منذ . . . منذ . . .

واعتصرت جبهتى أعد السنين ، ثم ابتسمت أكمل قولى :

منذ ثلاثين عاماً أو أكثر . . .

فتضاحكت « فيفى » تردد :

أكثر من ثلاثين عاماً . . .

ــ هذا هو الواقع . . . والآن وقد عثرت عليك ، ألا ترشدينى إلى دار الأسرة أزورها وأجدد العهد معها ؟

ــ أذهب معك بكل سرور . . . انتظر حتى ينتهى الحفل . . . ما أشترك فى مشاهد العرض .

ــ وهل ألقى فى الدار « ستوتة » و « الحاج أبو صالح » ؟

فنكست رأسها تقول :

كلا ، لقد ذهبا إلى رحمة الله !

ومرت برهة ، وكلانا صامت خاشع البصر .

ثم سموت برأسى إليها أقول :

والفرن . . . ألا أستطيع أن أقضى ليلتى عليه ؟ . . . لا أنسى الليالى الماضية التى قضيتها نائماً فوقه . . .

فتخايل على وجهها طيف ابتسام ، وقالت :

لافرن الآن فى الدار . . . بل ليس فى دور القرية الجديدة فرن واحد !
فتساءلت دهشاً :
وكيف تحصلون على خبزكم إذن ؟
فاتسعت ابتسامتها ، وقالت :
من خبز الجمعية التعاونية .
— أمر عجيب !
— بل أمر طبيعى . . .
وانسرحت بى الأفكار لحظات أهيم فى آفاق الماضى ، مستعيداً صوره وأطيافه ، ثم انبعثت أقص على « فيفى » ما أعرفه عن « السلامية » فى عهدها الغابر ، وماكان فيها من أوضاع العيش ومرافق الحياة .
وأفضت فى الحديث مشبوب العاطفة ، راوياً لها كيف كانت أمها « ستوتة » رائدتى فى جولاتنا اللاهية العابثة ، وكيف كنت سعيداً بريادتها .
وما أتممت حديثى حتى انبرت تقول :
أخشى أن تكون زيارتك اليوم « للسلامية » لا تحقق ما هفوت إليه .
فنظرت إليها ، فطالعتنى عيناها الخضراوان ، وقد تألقت فيهما حيوية دافقة . فقلت على استحياء :
كيف يكون ذلك وقد سعدت بمرآك ؟
فأخذت تسترسل فى حديث حماسى ، تصف القرية فى عهدها الجديد ، وما شاع فيها من أسباب الرخاء والرفاهية ، وما شمل أهلها من تطور اجتماعى . وكنت أنصت لها كل الإنصات ، وأنا مأخوذ بنغمة صوتها الساحر .
وأخيراً قلت :
لقد كانت أمى رائدتك فيما سلف ، فهلا رضيت بى اليوم رائدة لك ، أجول معك فى القرية الجديدة ، أريك مفاتنها ؟

فأجبت فى إقبال :

ليس أحب إلىّ من ذالك .

وزعق « المجهار » فى تلك اللحظة ، يعلن أن بدء الحفل وشيك . وأن على كل امرئ أن يأخذ مجلسه ، فقلت :

حان الوقت لأبحث عن مكان لى وسط هذا الزحام . . .

فأسرعت تقول :

إن مكانك بجوارى . . . ستلازمنى طول الوقت . . لقد بدأت ريادتى لك منذ اللحظة . . .

— كيف يكون ذلك ، وأنت من فرقة الفنانين الذين يشتركون فى العرض ؟

— اطمئن . . . هذا لا يغير من الأمر شيئاً . . . اعلم أن لكل فتاة حق اختيار زميلها فى مشاهد العرض . . . وقد اخترتك . . . انتظرنى هنا ، فسأعود بعد قليل . . .

واجتذبت منى الحقيبة وهى تقول :

سأحفظها لك فى مستودع الملابس ، حتى ينتهى الحفل .

فتركتها تفعل ، وقد انعقد لسانى ، وملكتنى حيرة .

ولم تطل غيبة « فيفى » فعادت وفى يدها لفيفة ، سرعان ما بسطتها أمامى ، فإذا هى « زعبوط » من المبتكرات الحديثة ، مخطط بألوان زاهية . وما عتمت أن طرحته على منكبى ، وطفقت تسويه على جسدى . ثم مضت تكركر فى الضحك ، وهى تردد :

فلاح عصرى ، طراز ١٩٦٤ !

ثم ناولتنى ورقة فيها بعض أناشيد منسوخة بالآلة الكاتبة ، وقالت لى :

ستحفظ أمامى هذه الأناشيد ، وسأدربك على إلقائها ، كما أدربك

على رقصات البرنامج .

وشرعت تدربنى ، وكانت استجابتى سريعة ، ولم ألبث أن أحسست نشطة طارئة تسرى بين جوانحى ، وكأننى عدت صبيا فى العاشرة ، أستقبل لهو الطفولة وعبثها ، دون رقيب .

والحق أنى لم أعد أفكر إلا فى اللحظة التى أحياها مع « فيفى » غافلا عن كل شىء عداها . لا ماضى يثقل علىّ بتقاليده ، ولا مستقبل يزعجنى بأشباحه الغامضة . ليس ثمة إلا بهجة تنبعث من طلعة رائدتى ، وصفاء يترقرق من لمح عينيها الخضراوين .

وزعق « المجهار » مرة أخرى يعلن بدء العرض ، فعلت أصوات تترنم بالأناشيد وقد صاحبتها ألحان جياشة . وأحسست بيد « فيفى » تمسك بساعدى ، وتسير بى ، فأرخيت لها قيادى فى استسلام . .

واحتوتنا الحفلة فيمن حوت من فرقة الفنانين ، وكانت الأنوار وهاجة تخطف البصر ، واستبانت أجهزة الإذاعة المرئية ضخمة متنوعة تلتقم الصور والأصوات فى شراهة .

ودرت مع « فيفى » نتراقص ونشترك فى الإنشاد ، وكانت الأناشيد تتغنى بقرية « السلامية » وتمجد تطورها فى العهد الجديد ، وقد حفت بها أنغام تتسرب فى أعماق النفوس ، فتثير فيها الحمية والنشوة .

وقضيت الوقت ، وأنا شبه ثمل ، أكاد أفقد الوعى لما حولى ، لولا أن هذا الوجه النحاسى المصقول بعينيه الخضراوين الصافيتين ، كان يردنى إلى اليقظة آنا بعد آن .

وانتهى العرض ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف .

وتخافتت الأضواء ، وزعق « المجهار » يعلن الاستراحة ، ويدعو النظارة إلى المقصف ، فمضينا إليه ، فإذا موائد مستطيلة ، جميلة التنسيق

رصت عليها أفانين من الشطائر والفطائر ، وشكول من الفاكهة والحلوى . فالتففنا حولها ، وأصبنا من طعامها ، فى جو يسوده بشر وإيناس .

وبرز امرؤ حاسر الرأس ، أنيق البزة ، على منصة فى صدر القاعة . فدوى التصفيق ، ومالت علىّ « فيفى » تقول :

إنه العمدة . . .

وألقى العمدة خطبة عامرة ، أجمل فيها ما أحرزته القرية خلال عام من تقدم ونماء ، فلقيت خطبته ترحيباً وحفاوة .

وانفض الجمع .

وهمست « فيفى » تقول :

والآن ألا ترغب فى الخروج ، تنشد النزهة فى جو طلق ؟

— أنا معك ، حيثما أردت .

وأدبرنا عن الملعب ، نتوخى وجه الطريق . وما لبثنا أن ملنا عنه إلى سكة جانبية تسايرها ترعة ، وعن يمينها وشمالها تترامى الحقول . وتناقلنا الحديث فى شأن الحفل وما دار فيه . وكنا كلما أوغلنا فى السير بعدت عنا الضجة ، ورقت الأضواء ، وقل الكلام . . .

وازدادت الحلكة . . .

وملكنا صمت . . .

وامتدت يدى إلى جيبى ، أتفقد منديلى ، فإذا نسيج مطرز يعلق بأصابعى . . . وبدت لى « الطاقية » فى مظهرها الساذج ، هدية « ستوتة » إلىّ ، يوم الرحيل ، فى الزمن البعيد .

ولمحتها « فيفى » ، فسألتنى :

ما بالها ؟

فرويت لها قصتها ، فتناولتها منى تتفحصها ، وهى تقول :

ما أنبل مشاعرك ! أتحتفظ بها طوال هذه السنين ؟

— إنها تذكرني بأيام طفولتي الحانئة . . .

— أثر تاريخي لطيف .

وردت « الطاقية » إلي ، وواصلت حديثها :

— مثل هذه « الطاقية » لم يعد له اليوم عندنا كبير شأن !

وتلاحقت الذكريات في خاطري ، وقلت لفتاتي :

— لم تذكري لي كيف قضت أمك ؟ ومتى ؟

— يوم مولدي .

فهمهمت :

— ما أمرها ذكرى !

وطوانا الصمت ، ثم استأنفت الحديث في نبرة محزونة ، أقول :

لي عندك مطلب .

— ماذا تبغي ؟

— أن أزور قبرها . . .

— في مستطاعي أن أمضي بك الساعة إليه إن شئت . . .

— الآن ؟

— إن مقبرة القرية غير بعيدة ، بيننا وبينها بعض خطوات . . .

وأشارت بيدها إلى خربة تغزوها الأعشاب اليابسة ، ويغشاها الظلام الموحش ، والسكون الكئيب . وقالت خافضة الصوت :

— إنه المكان الوحيد الذي لم تنله بعد يد التجديد . . .

وضربنا بأقدامنا صوب الخربة . . . وقد تمشى في جوانحي قلق غامض .

وما كدنا نسير ، حتى تأدى إلى أسماعنا صوت « المجهار » ينبئ بانتهاء الاستراحة واستئناف البرنامج ، فتوقفنا ، وقلت :

— لم يبق من وقت للزيارة . . . نعود أدراجنا . . .

— إنهم لا يستأنفون العرض على الفور ... هناك فسحة من الوقت ... تتيح لنا أن نزور . . .

وتراءت خلفنا أضواء الحفل تسطع وتتوهج ، وقويت الضجة فى صخب ، وامتلأ الجو بأنغام الموسيقى .

ولبثت لحظات أرجع البصر بين الخربة من أمام والحفل من وراء ، بين الظلمة الموحشة والأضواء الألاقة ، بين السكون المطبق والحركة الجياشة .

ثم ألفيتنى أمسك بيد صاحبتى وأرتد بها نحو القرية ، وأنبهنى صوت « فيفى » يقول :

— انتظر . . . انتظر قليلا . . .

— لم ؟

— شىء سقط منك .

— ماذا ؟

— لعله « الطاقية » . . . انظر . . .

وأشارت إلى شىء أبيض ، يترنح على حافة الترعة ، تداعبه نسمات المساء .

وهبت ريح تحمل « الطاقية » وتلقى بها فى الماء .

ورأيتها تطفو بعض وقت . . . ثم اختفت رويداً بين تموجات هينة رقاق .

وعجبت لأمرى كيف أحجم عن انتشال « الطاقية » ؟ . . .

لقد عرانى تبلد عجيب ، فلم أبد حراكاً . . .

وملت بناظرى عن الترعة ، أواصل السير ، ويدى فى يد صاحبتى . متجهين إلى « السلامية » الجديدة التى يغمرها فيض من حيوية ونور !

طيف « زهيرة »

عدت إلى دارى بعد منتصف الليل بقليل ، وتوخيت على الفور مكتبى ، وقد استقر منى العزم على أن أتم الفصل الختامى من قصتى المطولة « زهيرة » ، بعد أن ظل دون إتمام وقتا ليس بالقصير .

لزام أن أفرغ من القصة مهما يكن من أمر ، فلم يعد للتسويف مسوغ .

و « زهيرة » هذه فى القصة التى تحمل اسمها : غانية لعوب ، تأسر قلوب الرجال ، وتتحكم فيما لهم من مصاير وأقدار ، وإنها لتتميز بجاذبية أنثوية فتاكة ، وإن حياتها لسلسلة من المغامرات موصولة الحلقات فى دنيا اللهو والمجانة والهوى .

كانت شخصيتها مثار إعجاب من حولها من الناس فى أحداث القصة وطواياها ، ووجدتنى مشغوفاً بشخصيتها تلك التى سويتها لها على ما بها من غرابة وتعقد ، إذ كانت تجمع بين المتناقضات ، فهى مزاج طريف من التضحية السامية والأنانية الوضيعة ، من الرحمة البالغة والقسوة العنيفة ، من الحب الفياض والكراهية المستعرة ، من الأريحية السخية المبذرة والابتزاز للمال فى شراهة ممقوتة .

والآن ، وقد قضت « زهيرة » حياتها نهباً للأعاصير الهوج ، حان لها أن تستخفى عن العيون ، وتترك مكانها على مسرح الوجود . فقد أدت دورها

كاملا غير منقوص ، وحق عليها أن تنتهي أيامها ، ذلك ما تحتمه ملابسات حياتها ، وهو ختام طبيعي يساير منطق الأحداث فى غير تكلف ولا افتعال ، على ما يثيره فى نفسى من شعور الأسى المدفين .

وبسطت الأوراق بين يدى ، واستغرقت فى تفكير ، أقلب الأمر على شتى الوجوه ، وأخيراً أشرعت القلم لأكتب ، وإذا أنا بغتة أحس شيئاً يمس كتفى ، فالتفت أستبينه . . . لا شىء . . . الصمت والهدوء يضربان دونى نطاقا .

ولم تمض لحظات ، حتى تصيدت أذنى صوتاً أشبه برفيف أجنحة الفرافير ، بل ما أشبهه بوسوسة النسيم .

إن الصوت يحوم حولى .

ثم تراءى لى دخان أبيض ، لم يلبث أن تشكل فى صورة آدمية ، وكادت تنطلق منى شهقة ، وفغرت فمى وأنا أحدق فى الطيف . . . أترانى أمام روح تزورنى من العالم الآخر ؟

وتدانى الطيف منى على مهل ، وسمعته يتكلم هامساً :

« ألا تعرفنى ؟ »

هذه ملامح ليست غريبة عنى ، ونبرة الصوت مألوفة لى .

— يخيل إلى أنى عرفتك ، ولكن . . . أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

وانبعثت من الطيف ضحكة نسوية ناعمة ، طالما تجاوبت أصداؤها فى أذنى من قبل .

وسمعتها تقول :

— نحن نلتقى فى هذه الحجرة كل ليلة . . .

فسرت فى أوصالى رعشة ، وهمهمت :

— أممكن هذا ؟

— كل الإمكان يا صاح . . .

— عجيب . . . ولكن أليس لى أن أعرف مبعث هذه الزورة ؟

فمثلت هى بعض وقت فى صمت ، لا تختلج لها جارحة ، ثم قالت :

لماذا حكمت علىّ بالموت ؟

— أنا ؟ «كيف ؟

— الأوراق المبسوطة أمامك تشهد بصدق دعواى .

وألفيتنى أحملق فى الأوراق ذاهلا ، ويدى تمتد إليها تعبث بها . وشعرت بيد تمس منكبى ، فكأنما لامسنى تيار كهربى ، وإذا هى تقول :

أريد وقف الحكم الذى أصدرته علىّ . . . لا أريد أن أموت فى هذه السن المبكرة . . .

فأجبت وعيناى مشدودتان إلى الأوراق :

ليس ثمة مفر من موتك . . . التطور الطبيعى لحياتك يسلمك لا بد إلى هذه النهاية . . . إلى الانتحار !

فصاحت فى حدة :

لا ، لن أنتحر ، لن أموت ، وستلغى أنت بنفسك هذا الحكم الظلوم ! .

— ليس فى الأمر حيلة .

— قلت لك لا بد أن تلغى حكم الموت .

— وهل الأمر بيدى ؟

فتضاحكت تقول :

فى يد من إذن ؟

— فى يد الأقدار !

— أنت الذى تسوى قدرى ، وتخط مصيرى .

فرفعت إليها بصرى ، أقول مغمغماً :

أنا لا أسوى قدراً ولا أخط مصيراً . . . هيهات . . . هيهات !

— أنت خالقى ، وما أنا إلا وليدة إلهامك . . .

— لقد أطلقتك حرة ترسمين منهج حياتك بنفسك ، ولا أحد غيرك مسئول عن تصرفاتك .

ورأيتها تطيف بى صامتة ، ثم همست :

إذن فلا أقل من أن تمد إلىّ يد العون . . .

— حبذا . . . لو استطعت !

— فى مستطاعك أن تفعل . . .

— كيف ؟

فأحسست بخيالها يتمسح بوجهى ، ولكأنما هناك نسمة عبقة يتضوع منها أريج الزهر ، أريج نفاذ يبعث النشوة فى القلب .

ومضت تبدى لى مفاتنها فى إغراء وإغواء . . . فوجدتنى أقول :

احتشمى يا « زهيرة »

— ماذا تنكر مما أصنع ؟ ألست فى دارى ؟ ألست فى الموطن الذى شهد مولدى ؟

ومثلت أمامى فى وضعة مثيرة .

— جهد ضائع تبذلينه . . . أؤكد لك . . . لا تحسبى أنك قادرة على إخضاعى بمثل هذه الوسائل التى تجيدها الغوانى . . . لست واحداً من عشاقك المتولهين بك !

فرفت على محياها الرقيق ابتسامة ، وقالت فى طراوة أنوثة :

أتزعم أنك غير متوله بى ؟

— أنا ؟ . . . أنا أتوله بك ؟

فشعرت بكفها المواج يداعب خدى مهدهداً .

— أنت فى طليعة الواقعين فى أسرى . . . لن تفلت من سحر فتنتى . . . لن يجسر أحد على أن يعصينى !

— يا للمغرورة المتآمرة !

— هكذا سويتنى . . .

وما لبثت هى أن تمددت على المتكإ فى استرخاء .

ونهضت أنا أذرع الحجرة مضطرب الخطا ، ويداى معقودتان على صدرى . . . أغدو وأروح . . . وأروح وأغدو . . . ثم أخذت مكانى من المكتب متهاوياً على المقعد .

— هل وفقت إلى وسيلة أنجو بها من الموت ؟

— لا . . . واأسفا !

وتقضت فترة صمت جياشة .

وبغتة سمعت نشيجا مؤثراً .

وإذا أنا عن كثب من المتكإ ، أعالج أن أسرى عنها . . .

ونهضت تاسلم من شعثها ، وتصلح من مظهرها .

— إلى أين ؟

— إلى المكان الذى هيأته لى هناك . . . المنضدة . . . وزجاجة الشراب . . . والمسدس .

وندّت منى صيحة ذعر .

— لا . . . لا . . . بحق السماء لا تفعلى .

— إذن ؟

— أسهليني أتدبر الأمر ، لعلى واجد مخرجاً . . .

وعادت إلى المتكإ تستوى عليه ، أما أنا فاقتعدت حشية صغيرة على الأرض بمقربة منها .

— ألديك شراب يا حبيبى ؟

وسرعان ما كان الشراب .

وشرعنا نتساقاه على مهل .

— لا بد أن أجد حلاً يا « زهيرة » .

— وهل يستعصى عليك أن تجده ؟

— نستطيع أن نتعاون معا . . . نفكر . . . نتبادل الرأى . . .

وأمضينا الأمسية فى منادمة بهيجة وسمر أنيس .

ولذت بمخدعى سكران أترنح وأترنم .

وفى غد عدت إلى دارى ، بعد منتصف الليل بقليل ، وجلست إلى مكتبى ، تشيع بين جوانحى غبطة وانشراح ، وتناولت الأوراق التى تم فيها تدبيج الفصل الختامى من قصة « زهيرة » ، وطفقت أزوده باللمسات الأخيرة . وكنت كلما مضيت فى القراءة داهمنى شعور غامض فيه ألم وحسرة .

راجعت ، وعاودت المراجعة ، والمرارة تزداد بى .

واستشطت غضباً ، فضربت المكتب بيدى ، وأنا أجمجم لا أبين .

ثم جمعت الأوراق ، أوراق الفصل الختامى ، وانهلت عليها أشبعها تمزيقاً .

وسمعت صوتها الشاجى :

يبدو أن نجاتى من الموت محال .

— لقد جعل الريب فى كفايتى يتسرب إلى نفسى !

— إذن لا أمل ؟

— كل شىء يتيسر بالمهارة . . . فلماذا تخوننى مهارتى ؟

— فلتحاول كرة أخرى . . . .

وامتدت أمامنا مائدة الشراب ، وأقبلنا على منادمة وسمر ، وتألقت

شخصية « زهيرة » طاغية آسرة .

. . . وتوالى تدبيج الفصل الختامى من جديد .

وتوالت جلسات الأماسى ثائرة معربدة حول مائدة الشراب ، ويالها من أماسى واصلنا فيها السهر حتى مطلع الفجر ، وما أشبهها بليالى « ألف ليلة وليلة » ، كنت فيها « شهريار » ، وكانت « زهيرة » « شهر زادى » تحاول بحديثها المأنوس أن تستخلص رقبتها من سيف الجلاد !

أما نهارى فكان كله هما وحنقاً ، وشعوراً بالخيبة والإخفاق . . .

القصة بلا ختام .

الفصل الأخير مكانه شاغر .

أيظل كذلك إلى الأبد ؟

أأكون قد وقعت فى براثن غانية تحسن الكيد وتجيد العبث بالرجال ؟

أغدوت فريسة لها ؟

أأدع فنى صريعاً بين يديها ؟

وارتقبت أن ألقاها لأحسم معها الموقف الحائر المتميع . . .

وما كاد المساء يزفها إلىّ ، حتى تدانيت منها فى رفق ، وجلست معها على المتكإ ، وبعد صمت قالت :

ما بالك كأنك تنطوى على سر ؟

فأجبتها ، وأنا منسرح النظر :

سأفضى إليك بذات نفسى يا « زهيرة » . . . أجيبينى . . . ماذا يخيفك من الموت ؟

فانتفضت تقول :

عجباً لك ، الموت هو الموت . . . إنه الضياع الأكبر .

— ليس موتك ضياعاً . . . فالقصة الخالدة يخلد أبطالها معها .

— وهل فى ظنك أن شخصيتى أهل لهذا الخلود الذى تفرضه لها ؟

— كل شخصية تؤدى مهمتها فى الحياة إلى نهايتها ، دون تكلف أو افتعال ، لها من الخلود نصيب . . . فإذا لم تتخل عن مكانها ، وقد انتهت مهمتها ، كان وجودها لغواً ، وليس اللغو من سمات الخالدين !

— ولكن ما انتفاعى بهذا الخلود ، وقد حرمنى الحياة ؟

— إن الخلود هو الحياة الحقة . . .

— ولكنى لن أستشعر هذه الحياة الحقة التى تشيد بها ، فالموت هو الجمود المطبق ، والسكون المطلق . . .

— لا جمود ولا سكون يا « زهيرة » . . . الموت مجرد انتقال من حال إلى حال .

فصاحت :

فلسفة عويصة يصعب على مثلى إدراكها ! . . . قصارى ما أفهمه أن الموت ظلام ووحدة وبرود ! . . . وما أقسى !

— هذا ما يصوره لك خيالك المحدود ، خيالك المرتبط بك باعتبارك كائناً بشرياً على ظهر الأرض. . . أما إذا أرهفت الحس . . وأذكيت البصيرة ، وسموت بالروح ، فسيتجلى لك أن الموت تطور فى الذات الإنسانية . . . فلا فناء ولا عدم . . .

فصاحت :

كيف ؟ أكاد أفقد رشدى !

— الرشد هو أن تؤمنى بأن العدم لا مفهوم له . . . لا فى العقل والعلم ، ولا فى الفلسفة والدين !

— تحاول جهدك إقناعى بقبول الموت بصدر رحب ، لتستنقذ فناك ، تريد أن تودى بى ، طوعاً لما يتطلبه مجرى قصتك . . .

فنكست رأسى ، ولم أحر جواباً . . .

وانقطعت لا تزورنى ليالى ، متوالية فنالنى قلق ، وشاعت فى نفسى كآبة .

وعند ما عاودت زيارتى أقبلت عليها ملهوفاً .

— افتقدتك يا « زهيرة » . . .

— أحقاً ؟ . . .

قالتها فى نبرة شجن ولوعة .

— هل لك فى الشراب ؟

— لن أشرب . . .

وازداد بها التجهم .

— ماذا يشغلك ؟

— لا شيء . . . .

وخيم علينا صمت .

ثم سمعتها تخافت بصوتها :

ليكن لك ما تريد . . . ليكن فنك منزهاً عن الافتعال . . . لا فرض فيه ولا إلزام .

— فلننس الفن والافتعال فى مجلسنا الحاضر . . . علينا أن ننتهب المتعة انتهابا .

— والفصل الختامى ؟

— ليظل مكانه شاغراً . . . لن تموتى يا « زهيرة » على أية حال !

— بل يجب أن تتم الرواية فصولا ، وإن ذهبت حياتى فدية لتمامها . . .

— إنى واثق بكفايتى ، ولن أعيا بحل ينقذك من الهلاك . . .

وامتدت بيننا مائدة الشراب ، تحيى ليلنا الساهر . . .

لم تعد « زهيرة » تتعهدنى بالزيارة بانتظام ، وأخذت زوراتها تقل حيناً بعد حين ، واختفت فى سهراتنا مائدة الشراب ، فكان الوقت يمر

بيننا جامداً ليس فيه إلا الحسرات .

وتواصل اختفاؤها ، وأنا أرقبها فى تشوف .

وكلما طال غيابها ، ازددت من حيرة وشتات فكر .

وفجأة أحسست ثورة تهب من أغوار نفسى ، وتجلت لعينى تفاهتى وأنا أشهد مكان الفصل الختامى من القصة شاغراً أبيض الصفحات .

كان إنقاذ « زهيرة » من الموت عقبة ليس إلى تخطيها من سبيل .

ومرة بعد أن بلغ بى التفكير والتحيير مبلغ العنت والإرهاق ، انتقلت إلى المتكإ أطلب فيه غفوة استرخاء واستر واح ، وأغمضت جفنى .

وأنبهتنى طلقة تدوى فى الحجرة .

وإذا أنا أمام مشهد ملأنى رعباً .

تراءى لى فى سماء الحجرة نثار من سحاب أبيض ، وما أسرع أن تبينت صورة « زهيرة » وقد تمزقت أوصالها ، وتطايرت قطعة قطعة .

وتجلى لى وجهها ، وهو يعلو ويرق : جفنان مسبلان ، ومحيا ممتقع ؛ وملامح بالغة الأسى .

ووقفت وقتاً مصعوقاً أمام ذلك الحطام المبعثر ، وهو يتزايل شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق له أثر .

ورجعت إلى مقعد مكتبى أتهالك عليه ، وتعلقت عينى بالورقة الأخيرة للقصة ، وكنت قد تركتها بيضاء ، فإذا يد قد خطت فيها هذه السطور :

« تناولت « زهيرة » المسدس ، وتأملته ملياً ، ثم ابتسمت ، وقد اكتست عيناها بالدموع . . . لم يعد لها من مطمع فى الوجود . . . لقد عاشت حياة صاخبة مثيرة ، ولقد آن لها أن تستريح . . . إنها تموت منتحرة ! » .

ولاح لى المسدس على مقربة ، وجعلت أقلبه بين يدى ، وأنا لا أتمالك

من فرط ما عرانى من اضطراب وخبال . . .

ماذا ؟

أأكون حقاً أمام حادثة انتحار ؟

أم . . . أنا أمام حادثة قتل عن عمد ؟

وتركت المكتب ، قاصداً المقعد الوثير ، وألقيت بجسمى عليه ، وأملت رأسى إلى ظهره .

وطفرت من عينى دمعة حارة .

ثم وجدتنى وقد انطلقت من أعماق صدرى تنهدة ارتياح !

عبيط . . . عبيط ؟

استمعى إلىّ يا أمى ، ولا تقاطعينى .
أصغى إلى ابنك ، وهو يروى لك طرفاً من حياته .
لعلك تبتسمين فى عجب ، وتقولين :
وهل أجهل أنا من تاريخ حياتك شيئاً قل أو كثر ؟

نعم ، أنت تجهلين بعض جوانب من حياتى ، ما فى ذلك ريب ... وربما كانت هذه الجوانب التى لا تعلمينها من أمرى على صغرها هى أعظم جوانب حياتى خطراً ، وأبعدها أثراً . وربما كنت أنت على علم بظواهرها ولكنك لا تعرفين من تفاصيلها ما يصور حقيقتها الكاملة .

أنت تحيين معى ، وما أذكر أنك فارقتنى أو فارقتك يوماً أو ليلة . . .

كانت حياتنا معاً موصولة الحلقات ، بيد أنى أؤكد لك على الرغم من ذلك أنك لم تسبرى غور هذه النفس البشرية . . . نفسى أنا ابنك الذى هو جزء منك .
دعينى إذن أكشف لك مكنون صدرى ، وأطالعك بسر من حياتى دفين .

استمعى إلىّ يا أمى ولا تقاطعينى .
لا تعترضى على شىء مما أنا قائله . . .
الزمى الصمت . . . صمت الوعى والانتباه .

ما أفشيه الساعة لك هائل فاجع . . .
أنت فقيرة ، وأنا مثلك فقير .

لم يكن لى من التعليم نصيب ، ولكنى استطعت أن أكتسب غير قليل من الثقافة ، وألم بضروب شتى من المعرفة ، وأتفطن إلى ظواهر الحياة حوالى .

لقد استهوتنى أحاديث المتعلمين ، فأنصت لها كل الإنصات ، والتقطت الكثير مما يجادلون فيه ، وحفظته عن فهم ودراية .

كان أطيب وقت إلىّ هو الوقت الذى أقضيه عن كثب من زمرة المتعلمين فى المشارب والأندية ، وأنا قابع فى ركنى المنزوى ، غارق فى صمتى المديد .

فهمت مما يخوضون فيه من الحديث أمور الدنيا ، وتصاريف الحياة وشواغل الناس ، دون أن يحس أولئك المتعلمون أنى لقنت منهم شيئاً .

كنت أقضى أطول وقتى لا أنبس إلا فى الندرة ، فالكلمة لا تبرح فمى إلا عن اضطرار ، وشعارى الدائم هو الصمت والهدوء واجتناب الاختلاط بخلق الله ، فكان فى ذلك ما دعاهم أن يلقبونى : العبيط !

عبيط . . . أو ماكر خبيث . . . وحقك يا أمى لا أدرى أى الرجلين أنا ، ولكن جميع الناس ، وأنت أولهم ، يطلقون علىّ لقب العبيط !
أما أنا فى نظرها « دى » فكنت العبيط الأكبر ، ولذلك وقع اختيارها علىّ .
صه يا أمى . . .
قلت لك أصغى إلىّ ، لا تقاطعينى . . .
أرهفى سمعك ، لكى تتلقى من ابنك العبيط النبأ الهائل الفاجع الذى يزلزل كيانك .



. . . بل سأصمت أنا ، مرهفاً سمعى . . . أقادمون هم علىّ الساعة ؟

كأنى بهمس تترامى أصداؤه إلى أذنى . . .

كأنى يخفق أقدام تتدانى . . .

لا ، لا شىء من ذلك ، أحسب أن الوقت لم يحن ، نور الشمس الوضاح لم يكشف السر بعد .

لقد احتفلوا بليلة الزفاف حتى الفجر ، وهم الآن مستسلمون للكرى . . .

علىّ أن أتم حديثى معك ، أو بالأحرى اعترافى لك ، قبل أن يقدموا ليصطادونى ، وإنهم لا شك فاعلون .

أميل إلى اعتقاد أنى عبيط . . . نعم ، أنا عبيط ، وإلا لما استطاعت « هى » أن توقعنى فى حبائلها على هذا النحو المهين .

أنت تعلمين يا أمى أنى وسيم الطلعة ، فمنك انتقلت إلىّ هذه الوسامة . وإن شبابى لينفجر نشاطاً وحيوية ، وإنى مهذب الطبع خدوم ، وفوق ذلك أتحلى بفضيلة الصمت . . . وهذا ما قربنى إليها وقربها إلىّ . . . هذا ما أغراها بأن تختارنى دون سواى .

إنها ربة نعمتى ، وربة نعمتك أنت أيضاً يا أمى . . . لقد منحتنا هذا « الحاصل » الذى نبيت فيه ، ونأوى إليه ، وسكنت هى فى شقتها الفاخرة فوقه ، وكذلك منحتنا الكساء والغذاء ، وأسبغت علينا عطايا وهبات ، وإن كنا نحن أيضاً لم نبخل عليها وعلى زوجها بكل ما نستطيع من خدمات .

كنت أهيبها وأهيب زوجها معها ، وأعدهما من صنف آخر أرقى شأناً من الصنف الذى تنتسب إليه ، وكان الزوج ذا حزم وإرادة ، إذا مثلت أمامه أحسست الضياع . . .

لم يكن أصلب منى عوداً ولا أشد بنية ، فلو قدر له أن ينازلنى فى

مصاولة حرة لما ثبت إزائى دقائق معدودات ، ولكن ذلك لم يكن يعصمنى من أن أرهبه غاية الرهبة ، وأن أرتجف لمرآه . . .

فيم كل هذا الذى أستشعره نحوه ؟ ألأنى عبيط ؟

سمعت يوماً فى المشرب رجلا يصفنى بقوله : «صدقونى أن هذا الشاب ليس بالعبيط ، بل هو هادئ خجول طيب إلى أبعد حدود الطيبة ! »

لست فى الحق طيب القلب إلى هذا المدى ، فإن بى نزعة إلى الشر ، نزعة ممتدة إلى الأعماق السحيقة من نفسى ، وبين جنبى ضغينة مطوية ، ضغينة على ذلك الزوج ، برغم ما ألقاه من عطفه وإشفاقه ، فأنا أكرهه . . . أمقته . . . ولما وافته منيته لم تذرف عينى عليه دمعة ، بل شعرت بفرحة ، واستبان لى أنى كنت أتمنى موته . . . لماذا ؟ . . . لا أدرى!

وكانت «هى» مدة حدادها على زوجها تزداد فى لبوسها الأسود حسناً ووسامة ، وكلما حاولت أن أرفع إليها بصرى أتملى مفاتنها ارتدت نظراتى حسيرة متعثرة .

ومضت الأيام سهلة رخية . . .

وانقضت مدة الحداد ، وعاد الإشراق إلى محياها ، ورنت ضحكاتها عذبة ناعمة ، وأحسست بها . . . بها « هى » . . . تطيل وقفاتها معى ، وتفيض فى حديثها إلىّ ، ولى تتوسمنى . . .

واشتد اهتمامها بى ، فكانت تستبقينى فى الشقة وقتاً ليس بالقصير ، لأؤدى لها بعض الخدمات الخاصة ، وكانت تقول لى إنها ضاقت ذرعاً بخادمتها التى تكرر منها الإهمال والعناد .

واجتهدت فى خدمتها ، باذلا كل وسعى ، وأنا أتلقى رضاها عنى بغبطة وارتياح .

وعلى مر الأيام وجدتنى أقوم لها بأكثر ما كانت خادمتها تقوم به ،

أطهو وأغسل وأكوى ، وأؤدى غير ذلك من أعمال منزلية شتى .

كنت نشيطاً أحس الحياة بكل ما تحويه من بهجة وإسعاد .

ومثلت هى أمامى مرة تتوسمنى ، ثم قالت متلطفة : أنت شاب مجد فى عملك . . . ووسيم أيضاً !

وابتسمت لى ابتسامة متألقة ، وتابعت حديثها تقول : صحيح عبيط . . . وماله ؟ . . . أحسن ، عبيط !

وفى لحظة داعبتنى بقرصة فى خدى ، فكانت أسعد لحظة من عمرى . . .

وفى غد ألفيتها تهدى إلى كسوة من ملابس زوجها الراحل ، وحقاً كانت حلة فاخرة ، فلما ارتديتها وبدوت بها أمامها ، صاحت متهللة : يا لها من أناقة . . . لقد زدت فى نظرى وسامة وخفة !

وبدأت تستدعينى إلى حجرتها الخاصة ، لأساعدها وهى تبدل ملابسها ، وطفقت ترينى ما خفى من مفاتنها ، وهى تشير بإصبعها نحوى ، وترنو إلى ، وتردد على سمعى فى صوت منغم : لا ترفع عينك . . . الزم الأدب يا ولد !

فكنت أهمهم ، وأنا أختلس إليها النظر على الرغم منى ، وكل جارحة من جوارحى تتلهب .

ويوماً ، وهى فى مثل هذه الحال معى ، وأنا واقف منها كالصنم ، ولسانى منعقد ، وجدتنى أنقض عليها ، دون وعى . . .

لكأنما كنت فى حلم ، أعتصر بين يدى ليمونة حلوة ، وأرتشف رحيقها ارتشاف الظامئ للماء العذب ، بل إنى على الأصح أكلتها أكلا ، وأحسست بأنى لم أبق منها شيئاً لراغب فيها من بعد !

وتواصلت الأيام ، وأنا أستمرى ذلك المتاع العظيم . . .

وكثيراً ما كانت تقول لى فى حنان زائد : أنت طيب القلب . . .

طيب القلب جداً .

ولكن هذا الطيب القلب يا أمى جرؤ على أن يذبح دجاجة سمينة رائعة ، وجرؤ كذلك على أن يذبح معها ديكاً له خطره فى عالم الديكة !

صه يا أمى . . .

يخيل إلىّ أن لغطاً يعلو فى الخارج .

أنصتى معى فى سكون تام .

عجباً . . . إنها أصوات الجنادب التى تساكننا فى هذا « الحاصل » العتيق .

اطمئنى يا أمى ولا تخافى .

أتراك خفت فعلا عند ما عدت إليك فى مطاع الفجر ، بعد أن قمت بأداء مهمتى ؟

هل رأيت السكين الكبيرة ؟ إنها هنالك تحت اللحاف راقدة ، سكين المطبخ العظيمة ، لقد عنيت أنا بشحذها أياماً حتى غدت أرهف من حد السيف . فعلت ذلك حتى لا يكون معها ألم ، ولا تشويه للجسد . . .

وتم الأمر فى لحظات قصار . . . فى سهولة ويسر . . . وكثيراً ما يغلو المرء فى حساب عظائم الأمور !

شد ما أبغضت هذا الزوج الجديد ... أبغضته بغضاً لا تستطيعين أن تتصوريه ، ولم أكن قد رأيته إلا خطفاً فى تلك الليلة البارحة . . . ليلة الزفاف !

إذا استطعت يا أمى أن تحشدى حقد الحاقدين فى هذا الكون ، فاعلمى أنه إذا وزن بالحقد الذى حملته له ، فإنه ليتضاءل ولا يغدو شيئاً !

لم يكن أمامى غير هذه السبيل ، فسلكتها وأرحت نفسى .

لماذا اخترته يا حبيبتى زوجاً ثانياً لك ؟ ألم أكن أنا أكثر من زوج؟ .. كنت طوع يمينك مثل كلب وفى ، ولكن كان عليك أن تعرفى أن هذا الكلب عقور له أنياب كأنياب الذئاب !

لماذا نبذتنى ، واتخذته عوضاً عنى ؟ ألأنى عبيط وهو الذكى الألمعى ؟ ألأنى من سكان « الحواصل » وهو من سكان الدور ؟

لقد عشت معك وقتاً نتساقى الحب متعة موصولة ، وكنت راضية بى كل الرضا ، فما الذى غير قلبك علىّ ، وأنا الحريص على إسعادك ، بل إنى لراض أن أبذل حياتى فداء لحياتك ؟

ألفيتك تقصيننى عنك بغتة ، لأفسح المكان لغريمى ، وأنت تغمريننى بالمنح والهدايا ، حتى تهونى على نفسى قبول الأمر الواقع المرير ، وأخيراً أصدرت أمرك إلىّ أن ألزم مكانى فى « الحاصل » مع أمى ، كعهدى من قبل . . .

صه يا أمى ، ودعينى أنصت .

إنهم قادمون . . .

ذلك خفق أقدامهم على الأرض الصلبة ، تتجه نحو « الحاصل » . .

هاهم أولاء يسارعون إلىّ . . .

أثمة سلاسل معهم تصلصل ؟

أحس عن يقين أنهم اللحظة مقبلون .

لا يكذب حدسى هذه المرة .

فليأتوا ، كل شىء معد ، كل شىء فى متناول أيديهم ، السكين المخضبة بالدم راقدة تحت اللحاف ، وأنت يا أمى على وسادتك غائصة فى ذهول وخبال . . .

الضوضاء تعلو . . . أكبر الظن أنَّ الحى كله قد اجتمع ليشهد العبيط ، وهو يستقبل ضيوفه العظام . . .

سأنهض يا أمى للقائهم ... لا يصدر عنك صوت ... ابقى غائصة فى ذهولك وخبالك . . . وداعاً . . . وداعاً ليس بعده لقاء !

العدو . . .

إنه يحيا وحيداً منذ فارقها . . . لا يطيق أن يشركه فى مسكنه أحد . لم يعد يثق بقريب أو عشير أو صديق ، وليس هو بحاجة إلى من يتفقد شأنه ، أو يتعهده بالخدمة .

الحجرات فى مسكنه مغلقة ، إلا واحدة لنومه ، وهو يهيئ فيها فراشه بنفسه ، أما غذاؤه صباح مساء ، فإنه يصيبه فى مطعم أو مشرب أو ناد .

ولكنه مع ذلك يتساءل : أكاف هذا لكى يجعله آمناً على حياته : لا يخشى ضراً ولا أذى ؟

ثمة عدو شديد العداوة ، دائم التربص به ، والترصد له ، يريد أن يقضى عليه ، حتى يخلو له وجه الطريق إليها ، إليها هى ، زوجته التى فارقته ولم يعد إلى عودتها من سبيل .

لقد حرص على أن يقتنى مسدساً ، وأن يحشوه بالرصاص على الدوام ، وأن يحمله معه ليل نهار . . .

إنها لحرب قائمة بينه وبين عدوه ، بيد أنها حرب فى الخفاء ، كلها توجس ومحاذرة ، وكيد ودس ، وسيكون مصيرها حتماً أن يغتال أحدهما غريمه .

لا ، لن يكون هو الفريسة ، بل سيكونها عدوه .

محال أن يدع زوجته طعمة سائغة له .

وليصبرن على هذه الزوجة حتى يفرغ من أمر ذلك العدو ، ثم يناقشها هى الحساب فيما أقدمت عليه من خيانة شنعاء !

لا ينسى أنه سألها يوماً :

لماذا تخونيننى يا « سلوان » ؟

— أقسم لك يا زوجى أن الخيانة لم تخطر لى ببال .

— خائنة أنت !

— هدئ من روعك يا حبيبى ، ودعنا نتفهم الأمر فى تعقل .

— تنادينى يا حبيبى . . . وهو ، بأى الألقاب تنادينه ؟

— يا للغيرة الطائشة ! . . . ليس لى أن أنادى امرءاً لا أحس له من وجود .

— ما زلت تصرين على المكابرة والإنكار . . . سأكشف عنه النقاب ، وبطلقة واحدة من مسدسى أرديه قتيلا أمام عينيك ، عندئذ لا مفر لك من المجاهرة والاعتراف .

فتضاحكت قائلة :

حبذا أن تفعل ، إذن لاستطعت أن أرى ذلك المخلوق مرة فى حياتى !

فيهمهم محدثاً نفسه :

يا لها من منافقة كذوب !

على أن صورتها لا تبرح صوانة سريره ، عن كثب من رأسه ، يتنسم منها عبير أنفاسها ، فينعم فى نومه بأحلام شهية . فإذا استيقظ فى الصباح انتزع الصورة من مستقرها ، وأشبعها تمزيقاً ، حتى إذا غشى الليل ، واجهته الصورة متبوئة صوانة السرير ، فيشبع عينيه من سنا عينيها .

المصور يزوده دائماً بنسخ من تلك الصورة ، أوكلما نفدت طائفة حلت محلها طائفة أخرى !

لقد سمع الكثير من قصص الإدمان فى عالم الخمر وما إليها من المخدرات ، فهل أصبحت صورتها عقاراً يدمن تعاطيه ؟ أصارت هى إكسير حياته الأكبر ، لا حياة له بدونه ؟

لن يرضى لنفسه ذلك العبث به ، ولن يستكين لتلك المذلة التى تفرض عليه !

وجمع ما بقى لديه من صورها ، وألقى بها فى الموقد أمامه . . .

ورآها تحترق . . . رأى « سلوان » زوجته لحماً ودماً تأكلها النار أكلا . . . وكان يشم الدخان المنبعث من جثمانها المحترق ، فينتشى بعبيره انتشاء العابد المتصوف بشذا بخوره .

وقضاها ليلة ليلاء ، بين دمع وتحسر وانتحاب .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى عادت الصورة إلى مكانها المختار ، وكأنما انجلت بعودتها ظلمات تلك الليلة الليلاء .

لا . . . لا . . . لزام أن يضع لهذه المأساة حداً . . . لن يذعن للأمر الواقع . . . سيكشف عن خيانتها ، وسيودى بغريمه بطلقة واحدة من مسدسه العتيد !

وأضحى المسدس شغله الشاغل ، يفرغ له ساعات بأكملها من يومه الأطول ، ولا يألوه تعهداً وصقلا ، يستوثق حيناً من حشوه ، ويجرب تارة إطلاق قذيفة منه فى الهواء . . .

ومرة صوب المسدس إلى صورتها ، وهو يقول معابثاً :

خذى حذرك يا « سلوان » . . . إنى قاتلك لا محالة .

فيتأتى جوابها مهموساً يقول :

اضرب يا حبيبى . . . ما أشهى الموت من يدك !

– تستعذبين الموت من يدى تكفيراً عن إمعانك فى خيانتى . . . ولكن ثق أنى لن أقتلك إلا إن قضيت عليه أولا . . . هو عدوى الصميم !

– لا أعرف لك عدوًّا يا حبيبى ، وإذن فلن تمتد يدك إلىّ بسوء أبداً .

– تحاولين أن تخدعينى بمعسول القول ، إخفاء لجرمك .

– مهما يكن من أمرك ، فلن يصيبنى شر منك . . . لقد برّح بك الحب ، وإنك لتكاد تفقد عقلك شغفاً بى وهياماً .

– صمتاً . . . إنى أكرهك . . . أمقتك !

وانطلق إلى المشجب الذى يحمل ثيابها ، وأخذ بعض قمصانها المشبعة برائحة جسدها ، وانكب عليها يشبعها تمزيقاً . . . كان يعمل فيها أظفاره وأسنانه كأنما يبرأ لحمها وينهشه نهشاً .

وأخيراً تهاوى على المزق ، يمرغ فيها وجهه ، ويتشممها فى وجد وحنين .

إنه لمعترف فى وليجة نفسه بأن «سلوان» ليست شرًّا محضاً .

كم قضى بين أحضانها سويعات سعادة غالية لا تمحى ، يحس أناملها الناعمة تداعب خصلات شعره ، وأنفاسها الجياشة تترسل على وجهه ، وشفتيها الدافئتين تدغدغان خده !

وكثيراً ما هدهدته كما تهدهد الأم الرءوم وليدها الحبيب ، وراحت تغنى له بصوتها الشجى الحنون أغانيها العذاب ، فيتمثل نفسه بعد طول مغيب وتغريب يتمتع بطفولة هانئة ، لم ينعم بها فى سالف أيامه . إلا كما ينعم الحالم بالطيف العابر .

كانت له أم ، وما كان أشد حبه لها ، وتعلقه بها ، فلما طاف بها طائف المنون ، عظم حزنه عليها ، حتى تساقطت نفسه حسرات ، وظلت

حياته من بعدها مأساة موحشة جدباء . لا يجد بديلا مما فقد من أنس وحنان . . . ثم تاح له أن يأتى « سلوان » ، فما إن رآها حتى هتف فى أعماق وجدانه : أماه !

يا للمشابهة العجيبة بينها وبين أعز من فقد . . . لكأنهما توأمان !

وأفزعها نداؤه إياها بلفظ الأمومة ، بيد أنها ما لبثت أن ابتسمت فى رفق .

منذ تلك اللحظة أحس الارتباط الوثيق بينه وبين « سلوان » ، وآمن بأن التفريط فيها محال .

واقترن بها . . . وعاش معها عيشة عاشق تيمه الحب وأضناه الهيام، لا عيشة زوج تصله بزوجته عشرة وتعاون على حمل أعباء الحياة.

ومضى به وبها ركب الأيام . ثم كان من أمرها معه ما كان . . .

لا . . . لم تكن « سلوان » شراً محضاً !

وكذلك لم يكن هو خيراً محضاً !

كم أحس فى أوقات يقظته الحالمة بشىء يتحرك فى كيانه ، شىء كريه يبعث على الغثيان ، شىء يسكن الأعماق السحيقة من نفسه . . . إنه ليحس لهذا الشىء بغضاً ليس وراءه بغض ، وإنه ليود أن يقتلعه من جذوره اقتلاعاً ، ثم يطوح به بعيداً .

وأيا ما كانت الحال ، فإنه إزاء واقع يديننا ، وعليه أن يحسم الأمر ، ليخلص من الكابوس الجاثم على صدره .

لقد اختارت لسكناها . بعد فراقها إياه ، مغنى رشيقاً فى إحدى الضواحى . . . إنها تحسن اختيار المكان الملائم لملاقاة عشيقها ، غريمه الأصيل !

يا له من عش ناء فى بقعة غير مطروقة ، وما أصلحه مكاناً يعينها على أن تمعن فى التضليل والتمويه .

ولكن حيلتها لم تجز عليه ، فسرعان ما اكتشف مخبأها ، وكلف غير واحد من العيون والرتباء أن يرصدوا حركاتها ، ويرفعوا إليه التقارير الضافية فى شأنها ، ما ظهر وما استتر . . . وكان يجزل العطاء لمن يحصون عليها الشبهات ، ويكيلون لها التهم ، أما من يبرئون سلوكها من كل شائبة ، فكان ينبذ تقاريرهم وراء ظهره ، ولا يكافئهم عليها إلا بالقليل .

وعرف العيون والرقباء ذلك منه ، فكانت تقاريرهم بعد ذلك مفعمة بما يؤكد فضوح السمعة وسوء السلوك . وطالما أطنبت التقارير فى الكشف عن الوسائل العجيبة التى كان يتخذها الغريم للتسلل إلى وكر الغرام !

وانتهت مهمة الوسطاء من العيون والرقباء ، وحان له أن يضطلع هو بالأمر ، ليهتك الستر . . . كان يعسّ حول المغنى جانباً من الليل ، يقص الأثر كأنه كلب صيد لا يغفل ولا يكل .

شد ما وقف تحت نافذة حجرتها المضاءة يتطلع ، وعيناه تسايران طيفها خلف الأستار الهفهافة ذهاباً وجيئة .

إنه ليبحث إليها فى صمت بمناجيات اللوعة والصبابة .

ويستقر فى ركنه مستخفياً لا يبالى مر الوقت . . .

وأيقن بعد رقابة صارمة لليالى متوالية أن الغريم يطرقها ، وأنها تحتفى به فى حجرتها . . .

وانتهى به الأمر أن شهد بعينه « سواد » الغريم فى بهمة الليل ، وهو يدب إلى مغناها من باب خلفى مستور .

واستطاع أن يعرف الموعد المضروب للزيارة ، والمسار الذى يتخذه العاشق لبلوغ مأربه الذميم !

تمت له الأدلة ، ووضح الحكم ، ولم يبق عليه إلا التنفيذ .

وفى اليوم المختار ، لبث نهاره فى صحبة مسدسه ، يمرن يده على إصابة الهدف . . .

وزايل داره فى الساعة التى حددها للخروج ، ووصل إلى مكمنه فى الوقت الذى أراده ، وظل يرقب ظهور الغريم فى موعده .

كان متمالك الجوارح ، ممسكاً بالمسدس فى قبضته ، إلا أنه كان يحس قلبه يدق دق الطبل ، أما نظراته فكانت تائهة ، وكأنما هى تحت تأثير مغنطيس خفى . . .

وأخيراً بدا « سواد » الغريم يتخايل أمام عينيه ، وهو يأخذ سمته إلى الباب الخلفى ، فى حيطة واحتراس .

وتبعه الزوج ، كأنما هو آلة تتحرك بلوالب ، حتى إذا داناه صاح به :

قف ، واكشف عن شخصك . . . إنى قاتلك لا محالة

واستدار الغريم .

وبان للزوج وجهه .

أى الوجوه ذاك ؟

يا للعجب !

لم يكن يتصور أن يرى ذلك الوجه . . .

لكأنه يرى نفسه فى مرآة

وفى غير وعى منه انطلقت الرصاصة مدوية .

وخر « الزوج » متهاوياً على الأرض ، والدم يشخب من رأسه . . .

واستضافه المستشفى بضعة أيام ، وهو يتناوح بين موت وحياة . . .

وأخيراً شرع يصحو من غيبوبته ، وطفق جفناه يختلجان ، وغمغم :

الضوء يضايقنى . . . احجبوه عنى !

وأرخيت الأستار . . .

وتقضت لحظات ، وإذا هو يواصل همهمته ، وعيناه تحاولان

استجلاء المكان :
أين أنا ؟
وأحس بيد رفيقة تلامس يده ، وسمع صوتاً ليناً يقول :
لا تعنِّ نفسك بشيء . . . أنت في أمان ، والشفاء منك وشيك !
— وهل كنت مريضاً يا « سلوان » ؟
— أنت بخير . . . استكمل راحتك يا حبيبي . . .
فأمسك بيدها يضغطها متشبثاً بها وهو يقول :
لن تتركيني . . .
— أنا معك دائماً ، ولن أفارقك !
ورفع يدها إلى فمه ، وطفق يلثمها كما يلثم المؤمن يد قديس .
وأطبق جفنيه ، والدموع تتحدر على خديه ، وما هي إلا أن شمله سبات .

وفي غد قال لها :
ماذا جاء بي هنا !
— إنك تعالج جرحاً أصابك في رأسك ، والجرح قريب الالتئام . . .
فهمهم :
جرح في رأسي . . . من طلقة مسدس ؟ !
— أطلقها عليك غريمك في شجار بينك وبينه !
— غريمي ؟
— لقد قضيت عليه من ساعتك ، ولم يبق لك من مزاحم في حبك لي . . .
وراح يعتصر فكره ، لتتوضح له معالم الأحداث ، فلم تُسعفه

الذاكرة ، وأعياه الأمر ، ولكن شيئاً واحداً استطاع أن يبتعثه من كل ما مر به . . . ذلك أن مجهولا كان يترصد له ، يريد أن ينتزعها من يده . . . ينتزعها هى . . . أعز مخلوق لديه !

وسمعها تواصل حديثها قائلة له :

لقد أرديته قتيلا ، ذلك الوغد الذى كان يلاحقنى أشد ملاحقة . . . قتلته دفاعاً عنى . . . لقد أنجيتنى منه ، واستخلصتنى لك دونه . . .

وكان الطبيب عن كثب منهما ، يصغى إلى هذا الحديث ، فرفت على فمه ابتسامة الرضا ، وبادلته الزوجة نظرات لها مغزى . . .

وغاب الزوجان فى قبلة ظامئة مديدة !

لوح ثلج . . .

فى خيال كل امرئ بطولة مثالية يطمع أن يحرزها ، وبطولة السيد « دكرورى » التى يحرص على ألا يباريه فيها أحد ، هى أن يكون حامل الثلج المثالى .

لقد تخير هذه المهنة له ، وأولاها كل جهده ، مهنة حمل ألواح الثلج من المصنع فى ضاحية المدينة إلى « قهوة النزهة » المشرفة على شاطئ البحر ، وليس الطريق بين المصنع والقهوة بالقصير ، ولا هو بالسهل الميسور ، بيد أن « دكرورى » يقطعه مشبوب النشاط ، لا يعروه ضيق أو ملال .

لا يكاد يهل الصيف ، وتستقبل « قهوة النزهة » روادها من المصيفين حتى يتجلى الرجل بجسد ضامر ، وقامة مبسوطة ، ووجه بارز العظام ، ولكأن رأسه المستطيل شمامة قرعاء .

وإنك لتراه يتدفع بخطى فساح ، متعالى الهامة ، من زهو واعتزاز ، وفمه منشق عن ابتسامة عريضة فيها مخايل سذاجة واستخفاف ، وإن هذه الابتسامة لهى الطابع المميز له ، فيها تتبلور شخصيته ، وهى تتراءى على الفور سابحة على وجهه ، تبتلع قسماته ، على حين يتمدد على كتفه لوح الثلج الغارق فى برودته فى ركون واستسلام !

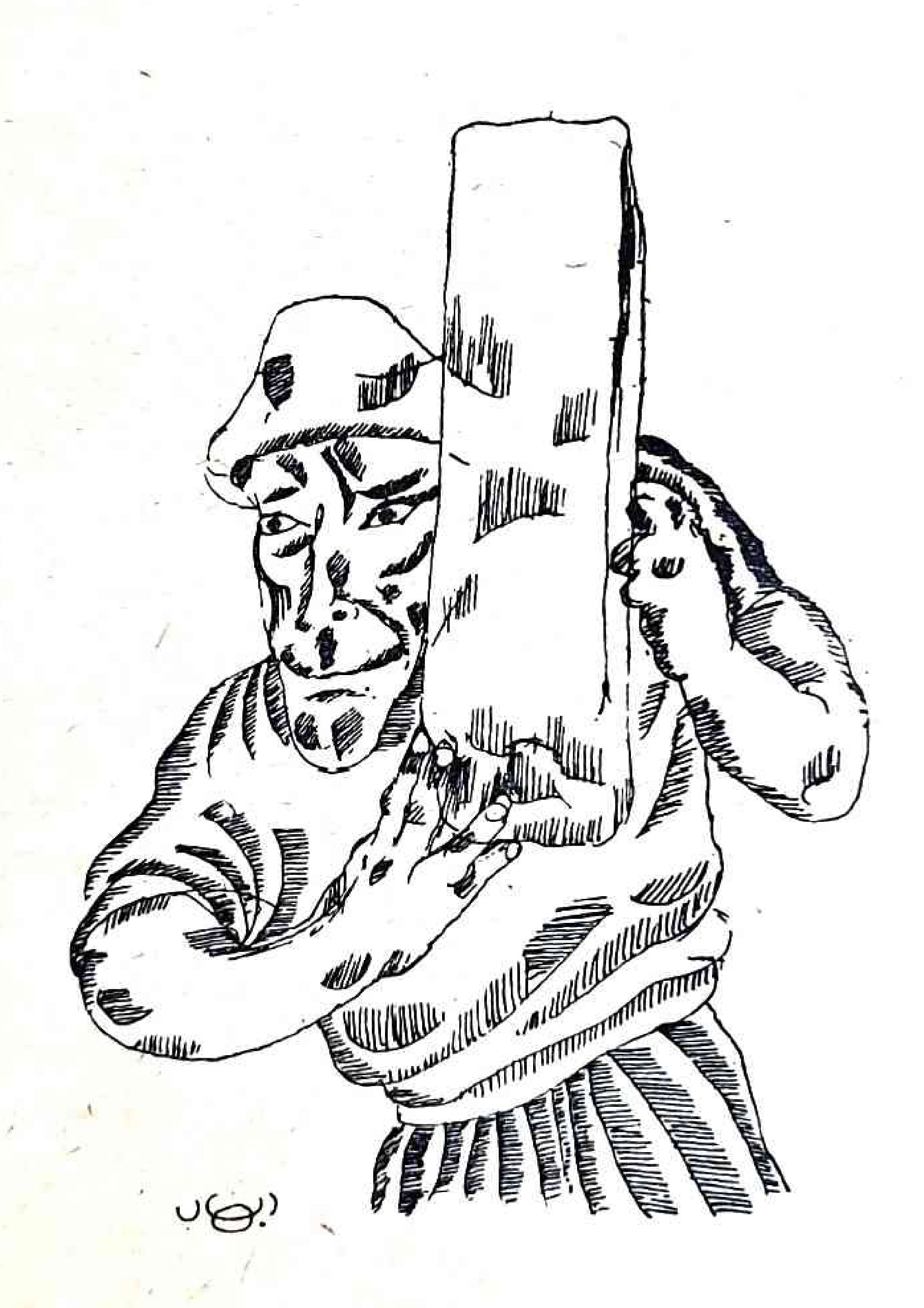
والناس جميعاً ، سواء المصيفون منهم وغير المصيفين ، لا يذكرون

متى بدأ السيد دكرورى يزاول مهنته تلك ، ولكنهم يذكرون أنهم يرونه فى كل صيف ، وقد يخيل إليهم أن مزاولته لتلك المهنة كانت منذ حقب لا يعرف مداها . وليس الرجل نفسه أكثر معرفة بشأنه من الناس حوله ، فقد أسقط من حسابه نظرية الزمن وقياس الأعمار ، لا يبالى مر الشهور والأعوام ، قدر ما يبالى استمتاعه بالحياة وفق هواه ، فى نطاق يومه المشهود ، بل فى حدود لحظاته السانحة !

حسبك من السيد دكرورى أنه رجل واجب ، وأنه عفيف أنوف ، وهو فى ترفعه عنيد إلى الغاية القصوى ، أما كسبه فيأتيه من موردين ، الأول أجره على حمل ألواح الثلج ، والآخر ما يمنحه إياه رواد القهوة لقاء ما يقوم به لهم من أعمال وخدمات .

والسيد دكرورى لا يؤدى كل عمل يطلب إليه أن يؤديه ، فله مزاج خاص فيما يقبل أن يعمل ، ومحال أن تقسره على عمل يأباه ، حتى لو استعنت على ذلك بأن تسوقه إلى دار الشرطة سوقاً . فهو يظل ماثلا أمامك كالصنم الصامد ، يطالعك بوجهه المستطيل الأصم ، لا تطرف له عين ، ولا تختلج فيه جارحة ، فلا تملك أنت إلا أن تطلق ضحكة ساخرة جوفاء ، ولا يملك هو إلا أن يحييك بأحسن من تحيتك أو يردها عليك ، فيعلو صوته بضحكة طائشة شوهاء ، وهو يتحسس بأصابعه العابثة قمة الشمامة القرعاء !

والرجل يعلن فى كل مناسبة ، بل فى غير مناسبة ، أنه يرفض الهبات والعطايا ، فليس هو بالمستجدى ، ولكنه رجل يكسب رزقه بعرق الجبين . وما يمد يده إلى درهم إلا إذا كان جزاء حلالا على عمل نهض به ، وإنه لرجل قنوع بما يناله من كسب وإن قل ، فإذا توافر له فى يومه الرزق بادر إلى إنفاقه مجهزاً عليه وإن كثر ، فنظرية الاقتصاد أو الادخار لا تعرف إلى عقله طريقاً ، وأما الحكمة القائلة بأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم



الأسود ، فلا مكان لها فى حياته ، وهو يعتبر أيامه كلها بيضاً لن يغشاها سواد . . .

وإذا لم يكن بد من حكمة يطمئن إليها ويتخذها شعاراً له فى سلوكه الاجتماعى ، فهى الحكمة القائلة : اصرف ما فى الجيب ، يأتك ما فى الغيب !

وإن حرصه على أداء واجبه على الوجه الأكمل ، ليجعله يستمسك بالدقة فى إيصال ألواح الثلج إلى القهوة فى المواعيد المرسومة ليل نهار ، وليست عنده ساعة يستعين بها على معرفة المواقيت ، ولا هو يرضى أن ينزل عن كبريائه ليسأل أحداً ممن يحملون الساعات ، وما أغناه عن التعرف والاستخبار ، فهو قادر على تعيين الزمن بحاسة طبيعية تخلقت فيه ونمت نموها ، حتى صارت عنده حاسة سادسة !

يغادر المصنع فى الوقت المحدد ، وعمود الثلج على كتفه ، ويصل إلى القهوة فى الساعة المنتظرة ، لا يستقدم لحظة ، ولا يستأخر ، وإذا رأيته وهو يتسلم من المصنع لوح الثلج ، ألفيته يعنى به كأنما هو طفل ترفق به أم رءوم ، يتناوله متلطفاً ، ثم يدرجه فى الخيش المعد له كأنه قماط يحميه من عاديات الجو ، وينطلق به فى الطريق انطلاق الصاروخ لا يعوقه شىء . فالمعابر مفتحة الأبواب أمامه ، والسابلة من حوله تتباعد وتتفرق مخلية له وجه السبيل . ويظل على حاله حتى يبلغ محطة الوصول ، شامخ الأنف ، يملكه شعور الانتصار ، وما إن يمر بحماله ، وجسمه مندى بقطرات الماء البارد ، حتى تحس نسمة رطبة تهب نحوك فى يومك القائظ ، فتكسبك الراحة والانتعاش .

وأسعد الأيام عند « دكرورى » هى الأيام التى يتلهب فيها الجو ؛ تلك أيامه المباركة ، فيها يبلغ ذروة نشوته ، فهو يجوز بين الناس متخطر بحمل لوح الثلج ، وهم يصاولون سياط الشمس الحامية ، ووهجها اللاسع

فيرميهم بنظرات تنفخ واستعلاء ، ولسان حاله يقول : أين أنتم مني أيها المساكين التعساء ، إنكم في النار تصلونها ، وأنا منها في بردوسلام !

ويوماً صحا السيد دكروري من نومه ، على مألوف عادته ، وزايل مأواه يتثاءب ويتمطى ، فإذا ضوء الشمس الساطعة يجبهه ، وإذا الهواء الساخن الثقيل يلفح وجهه ، واستبان له أنه في يوم من أيام الصيف العاتية ، ولاحت على فمه بسمة فيها السخرية وفيها التحدى ، وحث إلى المصنع خطاه ، وكلما أمعن في السير أحس وطأة الجو الحار تحيط به ، فلقد انبرت الشمس تصب على الأرض جام الغضب . . . وما كان ذلك بالجديد على السيد دكروري ، فلم يعقه عن أداء واجبه ، وبلغ مصنع الثلج ، وسمع رئيس العملة يقول : « شد حيلك يا دكروري ، أسرع حتى لا يذوب اللوح ! »

فحدق الرجل إليه ما وسعه أن يحدق ، وهو يجيب : « لوح الثلج معي يزيد ولا ينقص ، مهما يتغير الجو يا معلم . . . »

فقال رئيس العملة : « حقا إن جسمك مصنع ثلج آخر ، يعوض اللوح عما ينقص منه ! »

وأتبع قوله ضحكة مجلجلة ، ولكن « دكروري » قابلها بصمت وجمود ، وغادر المصنع صلب الملامح ، في نظراته جد وتصميم ، واللوح مستقر على كتفه ، ملفف في خيشه ، وأحس برد الثلج يرطب جسده ، فنشط في السير ، وهو يمد خطوه ويضرب الهواء بيمناه ، كما يضرب الملاح الدرب موج البحر بمجدافه الشديد .

وطاف برأسه خاطر : لماذا لا يغير خط السير ، فيختزل الطريق ؟ إنه على علم بأن ثمة سبيلا آخر غير مطروق إلى الشاطئ ، لو سلكه لبلغ القهوة في زمن أقصر . . . لم يسبق له أن اتخذ هذا السبيل ، ولكن ماذا عليه إن فعل ، وهو ابن المنطقة ، لا يخشى على نفسه فيها من شيء ؟

سيبلغ القهوة قبل الموعد المألوف على الرغم من وقدة الحر ، ولن ينقص لوح الثلج إلا بعض قطرات . . . ستقع المعجزة ، وإنه لصانعها . . . سيفوز بالبطولة ، وسيظفر من القوم بالتمجيد والإكبار .

وما عتم أن أنفذ الفكرة ، وسار على الدرب الجديد ، وقطع شوطا فيه ، وكان كلما دفع بخطاه اشتدت مغالبة الهواء الساخن له ، فالطريق مفض إلى الخلاء ، وفوق ذلك فهو غير معبد ، تسيخ الأقدام فى رماله ، إلا أن السيد دكرورى لم ييأس ، وواصل سيره ، محدًّا من عزمه ، مستمدًّا من ذلك العمود البلورى المستريح على كتفه ما يبعث فيه النشاط والانتعاش .

ولاطف العمود بيده وهو يبتسم . . .

وهبت عليه بغتة عاصفة رملية طمست عينيه ، فتريث قليلا يمسح وجهه ، ثم استأنف السير ، وقد هدأت العاصفة .

وغاصت قدماه فى رمال حارة كاوية ، فكأنما هو يمشى على جمر يتضرم . . .

وتقاطر الماء على كتفه غزيراً ، فامتزج بقطرات العرق المنبثق منه ، وما هو إلا أن ألفى ثيابه لاصقة بجسده ، كأنما هى قطعة من جلده . . .

وتحسس عمود الثلج ، فرجف قلبه ، وسرعان ما ضاعف من جهده ، واضطر أن يقف هنيهة يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، ورمى ببصره يمنة ويسرة : بقعة جرداء لا يتبين فيها إلا عتمة بسطتها ذرات الرمال الدكناء . أية وجهة يولى ؟ إنه لا يخطئ أبداً ، فطرته دائماً تهديه ، أليس فى قلمه إبرة مغنطيسية خفية تتجه به إلى بر الأمان ؟

وعاد يتحسس عمود الثلج ، فهاله الأمر . . . يا لله . . . إن العمود ليتضاءل ، بل ينهار . . . فابتعث من ضعفه قوة ، وزج بقدميه المكدودتين يقتعلهما من الرمل كما يقتلع جذر شجرة من باطن الأرض .

ليبلغن القهوة لا محالة . . .

ولكن . . . وأسفاه . . . لن يتسنى له تسليم عمود الثلج صحيحاً كاملا !

و واصل السير ، وقد اربدت سحنته الحرساء .

ومضى يستهدى فطرته فى عرض الطريق. . .

ولكن ماذا تستطيع الفطرة أن تصنع فى تلك المتاهة العتيدة ؟

وعن له أن يعود إلى الطريق المعبد . . .

وأراد أن يحدد مكانه؟ : أين هو ؟ فأعياه الأمر ... أتكون الإبرة المغنطيسية فى قدميه قد أصابها عطب !

إنه ليحس الضياع ، بل يحس بأنه حبيس سجن عظيم ، له أن يدور فيه ما شاء ، دون أن يتخطى أسواره . . .

أليس فى مستطاعه حقا أن يخلص من ذلك السجن الرهيب ؟

أليس ثمة من حيلة تعينه على أن يبلغ الشاطئ المفقود ؟

الخلق هنالك متجمعون يرتقبون مقدمه ، وإن عددهم ليتضاعف كلما مر الوقت ، فقد أصبحوا حشداً عظيماً ، وسيلقونه بالهتاف ممجدين جهاده الكبير . . . أتراه يخيب ظن الناس به؟

وانطلق فى الطريق ، وقد شد من عوده ، وعلا بهامته ، والإرهاق آخذ منه كل مأخذ .

وتكاثفت العتمة من حوله ، عتمة الرمال التى تذروها الرياح ، فكأنما الليل مقبل يجر وراءه أكداس الظلام . . .

وعزت عليه الرؤية الواضحة ، وجعل يدور فى تلك الدوامة الغبراء ، محاولا جهده أن يتنكب عن مواجهة العاصفة ، فهو يحيد عن مهبها ريثما تسكن ، وهو يجنح إلى وجهة تحميه ما أمكن . . .

وتشابهت تجاه عينيه كثبان الرمال ، وأدرك أخيراً أنه قد ضل حقا

معالم الطريق .

وشعر بأن شفتيه يعروهما جفاف ، وأن لسانه يجمد ، وحلقه يتشقق ، بل شعر بأن أضراسه تلوك حبات الرمال ، ولا يستطيع أن يلفظها ، وأن جسمه الذى وصفه رئيس العملة بأنه مصنع ثلج قد استحال فرناً يعمل على إذابة الثلج .

وانتظمته رجفة عارمة . . .

وعاد يتحسس العمود على كتفيه ، فراعه ما ناله من ضمور . . .

وكأنما أصابه مس ، ولم يعد له من شاغل إلا ذلك العمود الذى يكاد يفنى ، فجعل يتفقده فى اللحظة بعد اللحظة ، ويتلقى ماءه المتسايل ، كأنه جريح يفقد حياته نزفاً .

وأخيراً ألفى جسده يتهاوى وسط كثبان الرمال ، وأنزل العمود عن كتفه ، وطفق يعيده أدراجه فى خرقته ، وإن لم يبق منه إلا حطام ، واحتضنه بحنان وهو يهمهم :

« لن تخوننى . . . يجب أن تقف هذا النزف المستمر . . . تعقل قليلا ! » .

وأدنى العمود من وجهه ، وما كادت بقاياه الباردة تلامس جذوة شفتيه ، حتى أنشب فى الثلج أسنانه ينحت منه فى شراهة مسعورة ، ويمتص عصيره كأنه سفاح راح يعب من دم فريسته عباً . . .

وفاء « دكرورى » لنفسه ، فتعاظمه الجرم الذى اقترف ، فنحى العمود عنه ، وهو يختلج اختلاج صريع ، وانكب على وجهه ، يملكه شهاق . . .

ثم تحامل على ساقيه متثاقلا ، ومشى فى بطء وإعياء . . .

عليه أن يعود إلى القهوة ، مهما يكن من أمر . . .

عليه أن يسلم لوح الثلج ، وإن لم تبق منه إلا أنقاض . . .

عليه أن يؤدى واجبه ، و إن كانت الخرقة التى حملها على كتفيه ليس فيها إلا عصارة ماء . . .

واستبد به عناد ومكابرة ، وقلبه يدق دقا عنيفاً . . .

واشتدت العاصفة الهوجاء ، تحمل معها الرمال ، وتدور بها كأنها دوامات . . .

وتخبط « دكرورى » فى سيره تخبط مخمور ، ثم انهوى . . .

وانبطح على وجهه ، والخرقة المبللة فى حضنه ، يحوطها بذراعيه . . .

وتراكمت الرمال رويداً على تلك الكومة الآدمية ، كأنما تصونها من عبث الطبيعة العشواء !

وما لبثت الكومة الآدمية تحت الرمال المنهالة عليها أن خفت حركتها ، ثم سكنت سكون الأبد . . .

ولأول مرة فى تاريخ المصيف ، سجل أهل الشاطئ نبأ له خطر : أن « دكرورى» حامل الثلج المثالى لم يصل إلى القهوة فى موعده المحدود !

القبلة الأخيرة

يا سيدى ،
و يا أبى ،
و يا حبيبى الكبير .

وهل يسوغ لى أن أناديك إلا بهذه الألقاب مجتمعة ؟

أنت سيدى ، لأنك آويتنى فى دارك ، وأنا يتيمة ، معدمة ، ليس لى عائل.

وأنت أبى ، لأنك شملتنى بحنان أبوى مصفى ، ونشأتنى تنشئة كريمة ، وأتحت لى أن أستكمل من التعليم والتهذيب قدراً غير قليل .

وأنت حبيبى الكبير ، لأنك وحدك الذى استطاع أن يلمس شغاف قلبى ، وأن يبعث فيه نشوة الحب الجياشة ، تلك النشوة التى فسحت لعينى آفاقاً رائعة فى دنياى .

و إن ندائى لك « يا حبيبى الكبير » هو فى الحق النداء الذى لا يضارعه عندى نداء .

هو النداء الذى أخصه بأسمى درجات الإعزاز والتقديس .

دعنى إذن أكرر صائحة من أعماق قلبى :

يا حبيبى الكبير .

هذه كلمات أخطها لك الساعة على عجل ، فالفجر أوشك أن

يلوح ، ثم تطلع الشمس ، ويبدأ النهار التعيس الزاخر بالهموم الثقال .

كلمات أخطها لك قبل أن يحملوك إلى مقرك الأخير ، قبل أن يحاولوا الفصل بيني و بينك ، قبل أن يحجبوك عني إلى الأبد .

ولكن هذا محال .

ليس ثمة من قوة تستطيع أن تفصل بيننا ، فسنبقى متصلين على الدوام .

و إني لأطمح أن تفسح صدرك لكلماتي تلك ، وأن تعيرها جانب اهتمام .

إنها من ربيبتك الصغيرة ، تلك الفتاة التافهة الضئيلة التي لم تحظ بنصيب من رشاقة أو جمال ، ولم توهب من المزايا ما يجعلها جديرة منك بالتفات .

بيد أن هذه الفتاة التافهة الضئيلة وهبتها السماء قدرة على أن تحبك ، وحملتها أمانة ذلك الحب نحوك ، فلم تقصر فى أداء الأمانة على الوجه الأكمل .

أنا الآن راجعة من مخدعك .

تركتك حيث أنت ، ممدداً على فراشك ، مستغرقاً فى نومك الذى لا صحوة بعده .

تركتك لأختلس مما بقي من الوقت لحظات أنفض فيها عن نفسى سرًّا ظل مكتوماً فى طوايا قلبي ، لم أبح به لإنسان .

آن لى — وقد عاجلتك المنون — أن أتكلم .

وليكن حديثى إليك ، إليك وحدك ، وسأحرص على أن يظل بينى وبينك ، لا يشركنا فيه أحد .

تمر حياة المرء منا راتبة ، تعيد أيامها ، وتكرر لياليها ، فلا نوليها انتباها ، ولكن نتابعها فى بلاهة ، ثم يحدث زلزال مفاجىء ، يقضى على

هذا الرتوب الممل ، فيكون التحول العميق المفاجئ ، دفعة واحدة ، وتشق الحياة لها مجرى غير مجراها المألوف .

حدث هذا الزلزال حين جاءوا بك إلى الدار ، جثة هامدة ، وقد دهمك الموت بغتة .

شاهدتك محمولا ، فلم أع أول الأمر ما جرى ، وقصارى ما فهمته أنك صريع غيبوبة ، وأنك فى حاجة إلى قسط من الراحة ، فقد كنت رجل أعمال لا تهدأ ، قسوت على نفسك ، ولم تعرف لبدنك عليك حقا .

هرعت أسوى لك الفراش ، ثم رأيت الجمع يمددونك فوقه ، وعندما بسطوا عليك الملاءة البيضاء نزعتها عن وجهك بشدة .

كيف يمنعون هذا الوجه الصبيح أن يصافحه الهواء والنور ؟
ولكنهم أصروا على أن يحجبوا محياك .
ووضح لى فى الحال : لماذا يفعلون ؟
فتهاويت على الأرض ، فاقدة الوعى .

... الوقت يمضى سريعاً ، ولزام أن أتم كلماتى قبل أن تفارق الدار .

علىّ أن أشرح موقفى منك ، وأن أجلو خلجات نفسى لك .
أفعل ذلك لأريح ضميرى .

أما أنت فلا أدرى أيقع هذا الأمر منك ببال ، أم لا يعنيك منه قليل ولا كثير ؟

هل دار فى خلدك أن تلك الفتاة التافهة الضئيلة التى عاشت معك شبه منسية ، ترعاها من بعيد، وتنظر إليها من عل، كانت تضم جوانحها على عاطفة قوية نحوك ، على حب عارم لك ؟

هل عنّ لك يوماً أن ترسل نظرة فاحصة ، تسبر بها أغوار نفسى ،

لينكشف لك سرها الخفى ؟

من أنا حتى توليني تلك النظرة الفاحصة ؟

أين أكون منك ؟ من ذلك العملاق العظيم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس !

أنت يا من منحك الله كمال تكوين ، ورجاحة عقل ، واقتداراً على النهوض بجسام الأعباء .

أنت الذى كنت لا يعنيك شيء إلا نفسك . وما كان لى ولا لغيرى أن يملك عليك شيئاً من أمرك .

كنت أنانيا صاحب زهو وخيلاء .

بيد أنك كنت رائعاً فى أنانيتك ، عظيماً فى زهوك وخيلائك .

إنى أمجد فيك خلالك جميعاً على السواء ، تلك التى يحمدها الناس لك ، وتلك التى ينكرها الناس منك .

إنك فى عينى رجل مبرأ من النقائص والعيوب .

وأعترف لك بأنه ما من مرة لقيتك فيها ، إلا استولى على كيانى كله ، شعور ساحق من تهيب وخشوع ، حتى لا أطيق أن أرفع ناظرى إليك ، فكيف كنت أستطيع أن أجاهرك بمكنون قلبي ؟

هل خطر ببالك ما عانيت فى حبك ؟

فى كل ليلة كنت أرتقب موعد عودتك ، وكم سهرت الليالى قرب الباب أنتظرك . . . أنتظر تلك اللحظات القصار التى أراك فيها ماضياً إلى حجرتك ، تحييني بابتسامتك العابرة تحية المساء .

كانت تلك اللحظات تمر بى ، والليل ساج ، والأضواء خافتة ، والدار يشيع فيها صمت وهدوء ، فأحس نفسى تنتفض ، وتتراءى لى أخيلة وأحلام ساحرة ، وأجدنى لا أعدل بتلك اللحظات أثمن ما فى الأرض من كنوز .

أكنت على علم بما يدور بينى وبين نفسى ، وأنا أرتقب إيابك إلى الدار فى جوف الليل الساجى ؟

طالما تساءلت :

أين تقضى هذه الساعات الطوال ؟

أفى النادى حقا ، كما يتناقل أهل الدار ، أم هناك — وراء سهراتك المديدة — سر دفين ؟

أليس من المحقق أن رجلا رائعاً مثلك ، لا تخلو حياته من امرأة ؟

أفتاة هى فى مثل سنى ، فتاة تبادلها القبلات ، وتطارحها حديث الحب والهيام ؟

ويشب بين جوانحى حريق .

وأحس البغضاء نحوك .

وأقسم لألقينك بالباب عند عودتك بوابل من اللعنات .

وأمثل خلف الباب أترقب ، ومشاهد غرامياتك تتوالى أمام عينى ، ينسجها خيالى الملهوف فى غلو وإسراف .

وتخفق خطاك . . .

وأعد العدة لاستقبالك . . . عدة الهجوم والاقتحام .

ولكن ما إن ينفتح الباب ، وتهل بقامتك المبسوطة ، ووجهك النضر ، حتى أحس التخاذل والاستخذاء ، بل أحس الثورة على نفسى ، كيف سولت لى تلك النفس الغريرة الغشوم أن أظن بك الظنون ، وأن أناقشك الحساب ؟

أنت فوق كل سؤال .

وأنت فوق كل حساب .

ويملكنى شعور ندم وتكفير .

وأهم بأن أهبط عند قدميك ، أقبلهما ، وأمرغ وجهى فيهما . بيد

أن شبحك العظيم يتابع الخطى إلى حجرتك ، وما أسرع أن تطويك الحجرة عن ناظرى .

فى غير مستطاعى أن أخط لك أحداث حياتى كلها معك .

ويا لها من أحداث جليلة ، لا بستها عن كثب منك ، وأنت عنها غافل لا تحس لها من وجود .

إن الوقت يمر سريعاً ، ولا بد أن أتم رسالتى ، كى أتأهب لتلك اللحظة الرهيبة . . . لحظة الوداع والتشييع .

لا يتسع ما بقى من وقت للإفضاء بكل ما يكنه صدرى .

ولكن هناك سرًّا لا مندوحة من أن أبوح به لك .

واجب الوفاء يقتضينى أن أطالعك بهذا السر ، رضيت أم كرهت .

ذلك أنى لم أحمد شيئاً فى حياتى ، قدر حمدى لما حل بك !

نعم . . . إنى لأجهر بهذا القول ، دون تهيب .

يسرى فى نفسى شعور ارتياح ليس بعده ارتياح ، لعلمى أنك فارقت الدنيا ، ولم يبق لك فيها من حول ولا طول .

موتك يا حبيبى الكبير ، ويا أعز من عرفت فى أيامى ، قد أخضعك لسلطانى ، أخضع العملاق العظيم لتلك الفتاة التى لم تكن تعدها إلا ظلا ناصلا من ظلالك .

لقد تغلبت عليك الآن الفتاة التافهة الضئيلة المنسية ، واستطاعت أن تحقق أمنية لها ، كانت تظنها وهما من قبيل المحال ، أو حلماً عصى المنال .

إنها أمنية العمر .

الكارثة التى أصابتنى بموتك ، قد استحالت فى لحظات خاطفة ، فإذا هى ذروة السعادة والمتعة والانتصار .

لم يكن لى من سبيل إلى الظفر بتلك الأمنية ، وأنت فى قيد الحياة .

أما اليوم ، فقد دانت لى ، ولم يحل بينى و بينها عائق :
يطيب لى أن أتحدث إليك فى إفاضة .
فأصغ إلىّ .

كنت الساعة أجلس على مقربة من جثمانك ، أقضى سهرتى الأخيرة معك ، وليس فى الحجرة سواى ، وهذه الشمعة التى تترنح ذبالتها عند رأسك .

أهل الدار فى شغل بتدبير ما يكون فى صباح غد .

السكون فى حجرتك مخيم .

وأنت بجسمانك الرائع ممدد على الفراش ، تحجبك الملاءة عن الأنظار .

ليس بينى و بينك غير خطوتين اثنتين .

و بينما أنا على تلك الحال ، اتقد فى نفسى إحساس غريب مخيف مفاجئ . فنهضت تاركة مقعدى ، وتقدمت نحوك ، كأنما مسنى سحر .

ونضوت عن وجهك الغطاء ، وطالعنى محياك ، كما هو ، لم يغير الموت من سيمائه شيئاً ، بل لقد زاده من وسامة ونضرة .

وتراءت عليك بسمة خلابة .

ولبثت أشبع ناظرى من قسماتك .

ووجدتنى أنحنى عليك ، وأضع فمى على شفتيك .

وغبت معك فى قبلة عارمة . . . قبلة تجمعت فيها مشاعرى . . عصارة ما اعتلج فى قلبى لك من عاطفة طائشة هوجاء .

وظللت وقتاً لا أدرى مداه ، والقبلة فى عنفوانها .

وإنه لمن عجب أن أحس من شفتيك دفء الحياة ، وأن أشعر بهما تختلجان وتستجيبان لى ، فتشيع النشوة فى كيانى كله .

ها قد نلت الليلة منك ما كنت أشتهى ، أيها المتعالى الجبار .

ضننت علىّ بهذه القبلة فيما مضى ، واليوم انتزعتها منك انتزاعاً ، وأرغمتك على أن تشركنى فيها كما أهوى !

ها قد أخضعتك لإمرتى ، أيها الحبيب العاتى ، مرة واحدة ، وهى حسبى وكفى .

إنها قبلتى الأولى ، والأخيرة ، إليك .

وإنى لأختم لك بها قبلات الغانيات اللواتى شغفتهن حبا !

والآن ، وقد حظيت بأمنيتى الكبرى ، ونلت القبلة منك ، لم يعد لى فى الحياة من مطمح أعيش له .

ضوء النهار يكتمل فى الأفق .

خطى القوم فى طريقها إليك ، لتجهيزك .

علىّ أن أجهز أنا نفسى أيضاً . . . لأصحبك صحبة أبدية ليس بعدها انفصام .

سأتبعك حتى مرقدك الأخير .

سأمددك فيه على مهاد وثير .

ثم أضع الرسالة على صدرك .

بهذا أكون قد أديت واجبى لك .

سألحق بك وشيكاً ، حيث أصل روحى بروحك فى ذلك الفناء النيّر . . . عالم البقاء والخلود !

الرسالة . . .

حين مات عنها زوجها ، وزفت ابنتها الوحيدة إلى عروسها من بعد ، تخلت هى عن مسكنها فى العاصمة ، واختارت لها شقة صغيرة فى ضاحية « الزيتون » ، فكانت تحيا هنالك فى شبه عزلة ، لا مؤنس لها إلا ذكريات أيامها الخوالى .

ولعل ذكرى واحدة بين ركام ذكرياتها المختلفة ، ذكرى فريدة غالية ، هى التى احتلت من نفسها أعز مكان .

إنها ذكرى حادث كان أخطر ما جرى عليها من أحداث ، وكان أعمقها أثراً فى توجيه حياتها وحياة ابنتها الوحيدة وجهة أخرى .

وكلما استعادت مشاهد هذا الحادث ، أحست ابتسامة ترف على شفتيها الهادئتين . . . ابتسامة العجب من تصاريف القدر !

رب خطإ تافه غير مقصود يجر المرء إلى هاوية الخراب والدمار ، أو يهبه نجاة تنفتح بها صفحة جديدة فى سجل الأيام .

أثمة يد خفية لربان من السحرة يدير دفة السفينة ، وهى تشق الموج فى عباب الحياة ؟

كم لتلك اليد من ظواهر معابثات تنطوى على تدبير حكيم !

والآن وقد انقضت سنون طوال على ذلك الحادث الفذ ، يطيب للسيدة « سعدية » حرم الأستاذ « يسرى » أن تبتعثه بين الفينة

والفينة من غيابة الماضى ، وتجلو عنه غبار النسيان لعينيها خلال حلم من أحلام اليقظة ، فى دعة وسكون .

منذ ثلاثين عاماً ونيف ، وقد جاوزت السيدة « سعدية يسرى » الأربعين من عمرها ، فى يوم قائظ ، والساعة تقارب الثالثة بعد الظهر ، بارحت دارها ، قاصدة « مكتب البريد » ، وإنها لتحرص دائماً على الخروج فى تلك الساعة ، كلما أزمعت أن تزور ذلك المكتب ، وما أكثر زياراتها له ، مؤثرة جهد إمكانها جانب التخفى والكتمان .

ولم يكن اختيارها لتلك الساعة عبثاً ، فهو وقت القيلولة : فيه يغفو زوجها الأستاذ « يسرى » غفوة الظهر ، وفيه تخلو ابنتها الوحيدة « يسرية » لاستذكار دروسها ، وهو الوقت الذى لا ينشط فيه الناس لتتبع الخلق ، وتقصّى ما وراءهم من أسرار .

ويا له من سر ، ذلك الذى تحاول السيدة « سعدية يسرى » أن تستأثر به لنفسها . . . إنه سر حياتها الكبير !

ولما بلغت « مكتب البريد » توخت « شباك الرسائل المحفوظة » ، وقلبها سريع الخفوق ، وسألت :

أثمة رسالة باسمها ؟

فلم تمض لحظات حتى مد إليها عامل البريد يده برسالة ، فتناولتها فى عجلة ، وسرعان ما دستها فى أعماق حقيبتها ، وحثت الخطا إلى البيت ، تنتهبها أشتات الخواطر والأفكار . . .

هذه رسالة ممن أولته قلبها كله ، من حبيبها الأوحد . . .

أما لقاؤها له ، فلم يكن إلا بين فترة وفترة ، فهو من أهل الثغر ، لا يأتى إلى العاصمة إلا لماما . وإذا التقيا كان كل حظهما أن يتطارحا أحاديث الشوق ومناجيات الهوى ، بمنأى عن أسماع الفضوليين وأنظار الرقباء .

إنها جد حريصة على أن تظل علاقتها به فى طى الخفاء .

حسبها اليوم أن تحيا فى أخيلة جميلة تهيئها لها تلك اللقيات الخاطفة، فتشيد منها قصور السعادة والهناء ، مرتقبة يوم الخلاص ، يوم تتحقق لها المتعة الكبرى فى لقاء ليس بعده انفصام .

لقد واثقت حبيبها أن تهجر عش الزوجية ، وتلحق به ، لتقضى معه ما تبقى لهما من أيام فى بلد خارجى بعيد ، حيث يمارس عملا تجاريا يدر عليه الكسب الموفور .

ها هى ذى تنتظر منه أن يحدد الموعد . . . أن يعين اليوم الذى تبدأ فيه المغامرة البهيجة الحاسمة .

كفى ما مضى من أعوام كثيرة قضتها فى كنف زوجها الذى تقدمت به السن ، وطحنته الأعباء . . .

تزوجها يافعة ، لم تكد تحبو إلى السابعة عشرة ، وهو يومئذ رجل مكتمل النضج يربى على الأربعين .

أليس من حقها الآن ، وقد اعتصر زوجها الأنانى رحيق شبابها ، وكاد يلقى بها نفاية لا مأرب فيها لأحد ، أن تحول بين نفسها وبين التردى فى تلك الوهدة السحيقة ، وهدة الإهمال والضياع ، وأن تستخلص من أيامها الباقية فرصة للاستمتاع بالحياة ؟ . . .

هى اليوم فى أوج ازدهارها الأنثوى ، وقد غدت ابنتها فتاة فى السادسة عشرة توشك أن تكون لها حياتها الخاصة بعد سنوات قلال . أما زوجها هى فقد رانت عليه شيخوخة ثقيلة لا شفاء له منها إلا بالإذعان لما تقضى به الأقدار .

ماذا تجنى من عيشتها الحاضرة ، إلا أن تقبع فى ذلك الركن المعتم الموحش ، ركن الزوجية الجدباء ؟

ما أشبه هذا الزوج بطائر من طيور الأساطير ، علا فى الأفق حيناً



من الدهر ، يسبح في الضوء الساطع ، ويملأ صدره بالهواء المنعش ، ثم وهنت قواه ، فانهوى جاثماً على الأرض ، مرخياً جناحيه ليخفي تحتهما تلك الزوجة المنكودة ، فيحول بينها وبين الاستمتاع بمباهج العيش ، واسترواح نسيم الحياة .

لقد مكثت في كنفه حتى اليوم مخلصة له وفية ، واستنفدت في صحبته فورة الصبا وزهرة الشباب . . . وكفاها ذلك من بذل وفداء .

إن لنفسها عليها حقا ، وقد آن لها أن تلبي نداء رغباتها الطبيعية المفروضة ، وهي تحس الحيوية في أوصالها تضطرم ، مهيبة بها أن تنطلق مع هاتف الحب ، يطرب سمعها بأغاريده العذاب .

هذه فرصة تسنح لها ، ولن تدعها تفلت منها .

يممت صوب دارها محتضنة حقيبتها ، كأنما هي بين يديها وليد تحميه من مخاطر الطريق .

ستحتويها حجرتها بعد قليل ، وستخلو إلى رسالتها تبسطها أمامها لتقرأ النبأ العظيم .

وتابعت خطاها ، وقلبها يكاد يثب من بين جوانحها وثباً .

وعادت الخواطر في رأسها تتداعى .

ربما أنكر عليها منكر أن ترضى ذلك السلوك ، فتهجر زوجها بعد عشرة امتدت سنين بعد سنين ، زوجها الذي تعلق بها ، وتدله في حبها ، وأسبغ عليها حنانه ، ووفر لها عيشة هناء ورفاهية ، زوجها الذي احتمل من نزقها ومن بوادرها ما يضيق به صدر الحليم ، فكان يبالغ في تدليلها والتلطف بها ، محققاً ما كانت تهفو إليه من مطامح وأطماع .

هذا حق ، وما في مستطاعها أن تجحد منه شيئاً .

ولكن هذا الزوج لم يمكن يملك أن يفعل غير ما فعل ، ليسوس

زوجة أضفت عليه من فتنة الأنوثة وروعة الجاذبية ما أذاقه طيب العيش ، وأناله بهجة الحياة .

لقد ردت له جميله أضعافاً مضاعفة ، ولم يبق عليها أن تضيف جديداً .

. . . وكانت قد بلغت الدار

وتسللت إلى حجرتها فى تلصص .

وما هى إلا أن أقفلت وراءها الباب بالمفتاح .

واستخرجت الرسالة من أعماق الحقيبة ، وما لبثت أن فضت الغلاف بأنامل راجفة ، وما أسرع أن تصيدت عينها هذه الكلمات :

« موعدنا يوم الخميس فى الثالثة بعد الظهر . . . لقد أعددت كل شىء . . . سنسافر من فورنا إلى المكان المتفق عليه ، حيث نبدأ معا رحلة العمر ، نستمرئ رحيق الحب الهنىء . . . »

ووضعت الرسالة على صدرها ، ودقات قلبها تتسارع ، وفى خاطرها تتوارد أخيلة ومشاهد .

ولم يطل بها الوقت على هذه الحال .

عادت إلى الرسالة تقرؤها .

وفى هذه المرة اختلج جسدها اختلاجة دهشة .

أهذا خطه الذى ألف أن يكتب به رسائله إليها ؟

وأقبلت على الرسالة تتفحص كتابتها تفحص فنى خبير .

وكلما أنعمت النظر ودققت فى الملاحظة ، ازدادت من شك .

وتفاقم اضطرابها .

أتراها مكيدة ينصبها لها عاذل حسود ؟

ولاحت فى رأسها فكرة .

واختطفت الظرف الذى كانت تنطوى فيه الرسالة ، وقرأت على

ظهره ما يلى :

« الآنسة يسرية يسرى » . يحفظ بشباك البريد » .

وعادت تقرأ ، وتقرأ ، وهى لا تصدق ما ترى .

وغامت أمام عينيها الدنيا ، وتفصد من جبينها عرق .

وتزاحمت عليها الخواطر من كل صوب ، تناوشها بلا رحمة .

لقد كشفت عن سر ابنتها الخطير .

لولا أن موظف البريد اشتبه عليه الأمر ، بين اسمها « السيدة سعدية يسرى » واسم ابنتها « الآنسة يسرية يسرى » لبقى ذلك السر مصوناً لا تعلم به .

ها هى ذى تعلم الساعة – دون قصد – أن « يسرية » الصغيرة لها عاشق عتيد ، وهى التى لم تعد السادسة عشرة بعد، وإنه حقا لعاشق جرىء ، أعد لها عدة الهرب فى تدبير وإحكام . . .

يا له من اتفاق رهيب !

أم وابنتها تسيران فى طريق . . . طريق خطيئة ودنس !

كلتاهما تزمع ما تزمع الأخرى من أمر، وتتخذ ما تتخذ من حيلة ووسيلة!

وأخذت تروح وجهها بمنديل .

وخطت إلى النافذة تنظر .

الهدوء يشمل الدار .

زوجها فى حجرته ، يواصل غفوته .

وابنتها على مكتبها تستذكر درسها . . . درس العبث والمغامرة .

حين كانت الأم فى مثل سن ابنتها تلك، كانت مثلا للسذاجة والبراءة والصفاء ، ولم تكن تعرف من المغامرات الغرامية شيئاً قل أو كثر .

إنها لتعجب كيف استطاعت ابنتها أن تعقد تلك الصلة بصاحبها، وأن تبلغ معه مرحلة حاسمة ، دون أن يدرى ممن حولها أحد ؟ !

ألم تكن الأم تعايش ابنتها صباح مساء ؟

كيف مر ذلك كله ، تحت أنفها ، وهى جاهلة به ، أو ساهية عنه ؟

أكان من الممكن حقا أن يصل إلى علمها نبأ ، وهى التى قذفت بابنتها ، منذ أعوام خلت ، بين يدى حاضنة متهالكة عجوز ؟

أكان من الممكن أن تلحظ ما يجرى فى الخفاء ، وهى التى ظلت من أمرها فى شغل شاغل ؟

كل ما كان يملك عليها تفكيرها أن توفر لمظهرها التأنق والبهاء ، لتحتفظ ما استطاعت بما بقى من شبابها الذاهب مع الريح .

لقد اجتذبتها الحياة الصاخبة فى مجتمعات اللهو والسمر ، فانقادت لتيارها الجارف ، لا ترى فى مشاغل الأسرة والدار إلا الخواء والهباء .

وجعلت السيدة « سعدية يسرى » تعرض شريط حياتها ؛ كيف كانت بادىء بدء أما مثالية ، ترعى طفلتها أحسن رعاية ، وزوجة عفة وفية ، تتعهد زوجها أتم تعهد ؟ وكيف تغيرت بها الحال ، فألفت نفسها تتناءى رويداً عن ذلك الجو الألوف ، جو الأسرة بما يشيع فيه من دعة ووئام ؟

شد ما سحرتها تلك النزعة الجديدة التى ألقت بها فى دوامة المغامرات ، تستمتع بنشوة الحب ومتعة الأحلام .

وتراءت لها فى تلك اللحظة هاوية سحيقة كانت تتسع فوهتها أمام عينيها ، وعن يمينها زوجها الشيخ ، وعن يسارها ابنتها اليافعة ، وهى تدفع بهما وبنفسها أيضا إلى حافة الهاوية ، ليسقطوا فيها جميعاً إلى الحضيض .

وترامت على المقعد ، تستبد بها نوبة نشيج . . .

واسترسلت فى بكاء . . .

وكلما انهملت من مآقيها العبرات ، اشتدت رغبتها فى البكاء الحار ، ولكأن روحها تغتسل فى فيض دموعها ، تلتمس الطهر والنقاء .

وأحست السيدة « سعدية يسرى » صوتاً ينبعث من حجرة ابنتها . . .

إنه صرير باب ينفتح .

وهبت دفعة واحدة .

وفى لحظة كانت أمام الحجرة ، فألفت « يسرية » على أهبة أن تبرح الدار .

ومثلت الأم تجاه ابنتها ، وقد انعقد لسانها لا ينبس .

وقالت الفتاة ، وهى تتفحص وجه أمها فى اضطراب :

ما بك يا أمى ؟ إنك تبكين !

فسارعت الأم تمسح عينيها ، وقالت متهدجة الصوت :

إلى أين أنت ذاهبة يا ابنتى ؟

— إلى المتجر القريب ، أشترى بعض حاجات .

— بل إلى دار البريد ، لتتسلمى رسالة . . . لقد تسلمتها عوضاً عنك ! .

فشحب وجه « يسرية » ، وسرت فى أوصالها رعشة . . .

وأمسكت الأم ابنتها ، وقالت لها ، وهى تسوقها إلى الحجرة :

تعالى نتحدث قليلا . . .

. . . وبعد وقت خرجت من الحجرة السيدة « سعدية » وهى تحيط ابنتها « يسرية » بذراعها ، على حين كانت الفتاة خافضة الرأس ، كسيرة الخاطر ، تجفف بقايا دمع على خديها يترقرق . . .

ومالت الأم على « يسرية » تقول فى ملاطفة :

لقد حان أن يستيقظ أبوك . . . ألا تأتين معى إلى المطهى ، كى نعد له معا قدح الشاى ؟ !

تذكرة داود . . .

بجوار السور الذى يحيط بضريح « سيدى العتريس » فى فناء مسجد « السيدة زينب » يتراءى على الأرض رجل متهالك ، مسند ظهره إلى الحائط ، وقد استبدت به نوبة فواق عارمة . . . إنه شيخ عالى السن ، واهى القوى ، يرتدى حلة إفرنجية فضفاصة ، عاثت فيها يد البلى . تحتها قميص مفكك الأزرار ، تستبين منه رقبة عجفاء ضاوية ، ذات عروق نافرة ، وأنفاس الرجل تتلاحق وتنبهر ، وصدره يعلو ويهبط ، كأنه منفاخ حداد فى يد صبى عابث .

وإن السابلة لتمر بالرجل ، فتتأمله لحظات ، ثم تتساءل متعجبة من أمره ، وتمضى فى سيرها تتمصص الشفاه .

ومال امرؤ على آخر يقول :

لماذا لا يستدعون له الإسعاف ؟

فأطلق الآخر ضحكة مجلجلة ، وأجاب :

ما للإسعاف وله ؟ الإسعاف للخطير من الأحداث . . .

— أليست هذه حالة خطيرة ؟

— يبدو أنك لست من أهل الحى . . . تلك حال الرجل كما عهدناها منه . . . إنه يعانى داء « الزغطة » منذ مدة . . .

— عجيب . . . أليس له من علاج ؟

— يقال إنه جرب من الأدوية ما لا يحصى ولا يعد ، فلم يجد نفعاً . . . وأخيراً جاء يلتمس عون « سيدى العتريس » ، عله يلقى من

بركته الشفاء .

— وهل تظن أن « سيدى العتريس » سيشفيه من دائه ؟

— هذا فى علم الله .

ثم خافت بصوته ، يواصل قوله ، وهو يدنى فمه من أذن محدثه :

« سيدى العتريس » ولى صالح . . . ليس فى بركته من شك ، ولكنه لا يخلو من نزوات . . . إنه يمنح و يمنع وفق هواه .

فهمس الآخر بقوله :

ربما يكون لصندوق النذور أثر فيما يكون من المنح والمنع . . .

— إذا كان الأمر كذلك فلن ينال المسكين المصاب بالفواق نصيباً من الشفاء . . . ماذا معه من مال يواجه به « صندوق النذور » ؟

وتبادل الرجلان الابتسام ، ثم افترقا . . .

واشتدت بالمريض نوبة الفواق ، وأخذ جسمه يختلج اختلاجة محتضر ، فتجمع الناس من حوله ، وقد اشتد فضولهم ، وتعالى لغطهم ، وكأنهم جمع من الزوار فى متحف العجائب يتفرجون .

وصاح رجل أخذته الغيرة ، وظهرت عليه الحمية :

ألا تحضرون للمسكين شربة ماء ؟

وجرى غلام ، وما لبث أن عاد يحمل كوزاً ، ووجهه يتألق زهواً و بطولة .

وأخذ المريض جرعة من الماء ، ولكنه ظل على حاله صريع تشنجاته .

وازداد به الأمر سوءاً ، فجحظت عيناه ، وانتفخت أوداجه . وصاح الرجل الغيور :

ألا من طبيب يدرك المريض ؟

فقفزت الجملة هنا وهنا لك تتناقلها الأفواه ، فى تحمس ، من صف إلى صف ، حتى إذا بلغت آخر الصفوف تهاوت متخاذلة متزايلة ،

كموجة بلغت الشاطئ منهوكة القوى من طول تطواف .

واجتذبت الحلقة رواداً جدداً من عابرى السبيل ، وتعذرت الرؤية على كثير ، فأخذوا يشقون بمناكبهم الصفوف ، أو يشرئبون بأعناقهم ، نافذين بأنظارهم فوق الأكتاف ، حتى يتاح لهم أن يشهدوا هذه اللعبة البشرية التى لا تخلو من غرابة .

وارتفع التذمر من كل جانب ، وجعل الشغب يتفشى فى الحاضرين ، وكادت الفتنة يندلع لها لهيب ، لولا أن بدا طيف رجل يقتحم الحلقة ، وهو يبسمل ويحوقل ، جهير الصوت ، ثم قال :

دعوا الأمر لى . . .

فتطلع الجمع إليه ، ينظرون ماذا فى الأمر . وتابع الرجل خطاه ، وهو يجأر بقوله :

افسحوا لى طريقاً .

فانشق الجمع أمام الرجل ، كما انفلق البحر لموسى حين ضرب بعصاه .

وتداخل الهمس ، وتطاولت الرءوس ، واتسعت الأحداق ، وهو يعبر طريقه بين الأمواج .

إنه لضآلة شخصه ، وضمور عوده ، تكاد تخطئه العيون ، لولا تلك الجعجعة المنبعثة من حلقه كالرعد القاصف ، وإنه لتكسوه حلة رثة ، وعلى رأسه طربوش أفطس ، حائل اللون ، غارق إلى الأذنين . وفى يده سبحة ذات حبات غلاظ ، تتدلى بجانبه إلى كعبه .

وأخيراً وصل إلى مكان المريض ، فلبث ملياً يقلب فيه بصره ، وأزاح طربوشه إلى الخلف ، وراح يحك فروة رأسه .

وعلى حين بغتة ، شهق شهقة عنيفة ، رجفت لها قلوب الحاضرين ، وضرب جبهته بيده وهو يصيخ :

وجدتها . . . وجدتها . . . إنها فى « التذكرة » .

ثم وجه إلى المريض قوله :

لا تخش من بأس . . . وصفة العلاج مسطرة فى « تذكرة داود » ! . إنه دواء حاسم ، وعلاج ناجع ، وليس وراءه إلا الشفاء فى لحظات .

فلاحت بسمة هزيلة على محيا العليل ، وأوصاله لا تفتأ ترتعش .

واعتدل الولى الصالح فى وقفته ، وقد اتخذ سمت المفكر الغارق فى تأملاته ، ثم رفع صوته قائلا :

لا يملك علاجك إلا فتاة عذراء .

فانتظمت الجمع مسة كهربية ، وتساءلوا متلهفين :

كيف ؟ كيف ؟

فتطاول الولى بصدره ، وتنفخ كما ينتفخ الديك الرومى حين يتأهب لإطلاق هريره المعروف . ثم صاح :

دواؤك فى قبلة شيقة تترشفها من شفة عذراء . . .

فتراحبت بسمة المريض ، حتى فاضت على جوانب محياه ، بيد أن اختلاجاته لم تهادن كيانه .

وضج الجمع ضجيج الاستحسان ، لقد تطلع إلى أن يستمتع بمشاهدة ذلك المريض ، وهو يقبل عذراء قبلة مشبوبة تشبه قبلات أبطال الأفلام ، فى مواقف الصبابة والهيام . . .

ودار الولى الصالح بعينيه النفاذتين يتفقد بغيته فيمن حواليه ، وأحس شبحاً يحاول أن يتسلل من بين الصفوف ، نجاء بنفسه من المأزق ، فأطلق صيحة عارمة ، كأنها شبكة صياد ماهر يبسطها على فريسته ، وأخذ يردد :

قفى يا آنسة . . . لا تهربى من عمل الخير . . . لا تهربى من واجب إنسانى مفروض عليك أداؤه .

ورق صوته يقول :

أناشدك الله والمروءة أن تمدى لنا يد العون لإنقاذ هذا المحتضر من هلاك وشيك .

وازدادت نبرات صوته رقة وعذوبة ، وهو يمد إليها ذراعيه ضارعاً :

قبلة واحدة . . . قبلة واحدة لا تضيرك ، فيها الشفاء من داء عضال .

ورماها الحاضرون من عيونهم بشواظ ، فكأنما سحرتها أشعة مغنطيسية . وحوصرت فى الحلقة كل حصار ، فلم تجد لها منفذاً إلى خروج ، على حين كانت الأصوات تردد قولة الولى الصالح :

لا تهربى من عمل الخير . . . لا تهربى من واجب إنسانى مفروض عليك أداؤه .

وتقدم إليها الولى ، آخذاً بيدها ، وهى ممتقعة الوجه ، ترتعد ، وعلى قسماتها ذهول ، وجاز الرجل بها ، بين الصفوف ، حتى بلغ مكان المحتضر . ولم تلبث أن دفع بها على صدره ، فتلقفتها يدان مرعشتان باد عليهما التقلص ، وما أسرع أن حوتها ذراعان واهنتان . فلما أحس المريض بشفة نضرة ريانة تلامس شفته المصوحة العجفاء ، اتقدت مشاعره ، وانبرى يعب من المنهل العذب ما وسعه أن يعب .

وبغتة ثاب إلى الفتاة رشدها ، فنهضت تنتزع جسدها من حضن المريض ، وهى تنتفض من ذعر ، وطفقت تمسح فمها ، فى شدة وعنف وتكرار ، كأنما تميط عنه أوضاراً لحقت به ، والحاضرون يمنة ويسرة يتغامزون . . .

وكان الولى الصالح ماثلا يشهد الموقف ، وعيناه جاحظتان ، وأنفاسه متلاحقة ، ولعابه يتسايل على فمه . . . ثم راح يهمهم :

ستكتب لك فى صفحتك ألف حسنة وحسنة !

ثم ترنح وهو يتلمس جدار المسجد .

أما المريض فقد تدلت على جنبيه ذراعاه ، وشاعت زرقة على محياه ، وإن بقيت البسمة على فه لا يتغير لها وضع . وما عتم أن تهاوى رأسه ، وتداعى جسده بلا حراك . . .

حقا لقد نجعت الوصفة ، قضت على الداء كل قضاء . . . كان فيها الشفاء التام . . . الشفاء أبد الدهر !

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر


KESMA
بالالانولين والجلسرين بالالانولين
صابون
معطر
إنتاج
٣ أحجام
قسمة